دولة السلاجقة



تأليف
الدكتور عبد النعيم محمد حسنين

دولة السلاجقة

تأليف
الدكتور عبد النعيم محمد حسنين
أستاذ ورئيس قسم اللغات الشرقية وآدابها
بكلية الآداب بجامعة عين شمس
وعميد معهد اللغات بجامعة الأزهر

١٩٧٥

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لعب السلاجقة دوراً مهماً على مسرح التاريخ لا زالت آثاره باقية إلى يومنا هذا ، وكانوا من الجماعات التركية التى خرجت من مواطنها الأصلية ثم استقرت فى أرض جديدة صنعت فيها أوطانها ، وحملت معها عناصر من مقومات حياتها الأولى ، واقتبست من مقومات الحضارة الأصلية فى الأرض الجديدة ، وكانت حركتهم من الحركات الكبرى التى غيرت وجه التاريخ .

وقد كان السلاجقة - فى أصلهم - مجموعة من القبائل التركية التى دفعتها الظروف الاقتصادية والسياسية إلى كثرة التنقل انتجاعا لمواطن الكلأ وبحثا عن أسباب العيش الرغيد ، إلى أن سكنوا فى إقليم ماوراء النهر فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجريين ، ثم انتقلوا بعد مدة وجيزة إلى إقليم خراسان ، وأخذوا يجنحون إلى الاستقرار ، ويكونون الجيوش ، حتى تمكنوا من إقامة دولة فى عام ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) . اعترف الخليفة العباسى بقيامها فى عام ٤٣٢ هـ (١٠٤٠ م) ، ولم تلبث دولة السلاجقة أن بسطت نفوذها على إيران والعراق ، وعلى أكثر أجزاء آسيا الصغرى والشام .

وقد أدى انتزاع السلاجقة أرض الأناضول من الروم إلى تحويلها إلى

أرض تركية إسلامية ، فمهدوا للترك العثمانيين السبيل إلى القضاء على دولة الروم والاندفاع فى الأراضى والبحار الأوربية ؛ كما لعب أحفاد السلاجقة وقوادهم فى بلاد الشام دوراً مهماً فى الحروب الصليبية ، ونجحوا فى القضاء على الصليبيين ، وإخراجهم من بلاد المسلمين ، وفى تقوية المعسكر السنى الذى كان يتزعمه الخليفة العباسى فى بغداد ، فكان لهذا كله أثر بعيد فى توجيه تاريخ كثير من البلاد الإسلامية وغير الإسلامية ، وفى توجيه حضارتها ومستقبلها ما زال بعض ملموساً إلى الوقت الحاضر .

وقد أثر العنصر القبلى فى مختلف مظاهر حياة السلاجقة بعد استقرارهم وتكوين دولتهم ، مما جعل أثر حكم السلاجقة واضحاً فى مختلف مظاهر الحضارة الإسلامية فى عصرهم ؛ وهو أثر لا يقتصر على السياسة ونظم الحكم بل يمتد إلى العلوم والآداب والفنون ، وهذا كله يجعل تاريخ السلاجقة جديراً بالدراسة التى تكشف لنا جزءاً مهماً من تراثنا الحضارى ، غاصت جذوره فى أعماق الزمن ، فلم تبلها العصور المتعاقبة ، والأجيال المتتابعة .

وقد حاولت — فى هذا الكتاب — أن أقدم صورة واضحة لتاريخ السلاجقة فى البلاد التى خضعت لحكمهم ، كما حاولت أن أبرز أهم الأحداث التى كانت ذات أثر واضح فى تاريخهم ، وتاريخ الشعوب المجاورة لهم ، وأن أبين أهمية الدور الذى لعبه السلاجقة فى تاريخ الشرق والعالم الإسلامى ، وأن أعرف بأهم مظاهر الحضارة فى عصرهم .

وقد اعتمدت فى هذا الكتاب على مراجع مطبوعة وغير مطبوعة كثير منها باللغة الفارسية ، تعد من المصادر الأصيلة فى تاريخ الدول الإسلامية فى العصور الوسيطة .

وأرجو أن يكون كتابي هذا حافزاً للدارسين للقيام بأبحاث أكثر تفصيلا فى المستقبل القريب إن شاء الله ، وأنا أرحب بكل نقد نزيه يستهدف الحقيقة العلمية التى هى غاية الدارسين .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ؟

الدقى فى ٢٤ من صفر ١٣٩٥

الموافق ٧ من مارس ١٩٧٥

عبد المنعم حسنين

الفصل الأول

العالم الإسلامي قبيل ظهور السلاجقة

تمهيد :

شهد التاريخ حركة خروج الجماعات التركية من مواطنها الأصلية فى أواسط آسيا وتسربها أحيانا . واندفاعها - أحيانا أخرى - إلى غربى آسيا وشرق أوربا ووسطها، وهى حركة امتدت من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) إلى القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) .

وكان خروج هذه الجماعات من مواطنها الأصلية يرجع إما إلى ظروف اقتصادية ملحة كأن يكثر عدد أفرادها ويصبح المكان الذى تقيم فيه لا يفى بحاجاتها فتبحث عن مكان آخر أكثر اتساعا وأوفر خيرات وإما إلى ضغط قبائل أكثر قوة تجبرها على الرحيل لتبحث عن موطن آخر .

وكانت هذه الجماعات المهاجرة فى كلتا الحالتين أشبه بالجيوش مدربة على القتال لتدافع عن نفسها فى أثناء انتقالها من مكان إلى آخر ، ومن أجل النزول فى الموطن الجديد .

وكانت نقطة التحول فى تاريخ هذه الجماعات التركية اعتناقها الإسلام ، لأن اعتناق الترك الإسلام أزال الحاجز الذى كان يقف بينهم وبين المسلمين ، كما أزال الحاجز الذى كان يقف بينهم وبين التاريخ العالمى ، فأخذوا يتسربون إلى ممالك المسلمين ، ويدخلون فى خدمة ملوكها وأمرائها وقوادها ،

ويمدون هذه الممالك بقوة جديدة ، ثم واتتهم الظروف ، فأقاموا لهم دولا ، أى أن الإسلام رفع من قدر الترك ، فأدخلهم فى نطاق التاريخ العالمى ، كما مهدوا هم لأنفسهم فيه مكانا عليا حين التفوا حول راية الإسلام ، فأنعشوا قوته ، وحملوا رايته ، وساروا بها فى البر والبحر حتى بلغوا بها وسط أوربا .

وكان السلاجقة من الجماعات التركية التى تحركت غرباً إلى أراضى الدول الإسلامية ، واستقرت فى هذه الأراضى ، واستغلت أحوال البلاد التى نزلتها ، وحاربت من تصدى لها وتمكنت من إقامة دولة ، كان هدفها البعيد توحيد العالم الإسلامى تحت زعامة سنية .

وقد استطاع السلاجقة السيطرة على إيران والعراق ، وهيمنوا على الخلافة العباسية ، وحاربوا الفاطميين والإسماعيليين تأمينا للوحدة المذهبية ، كما حاربوا الروم وانتزعوا منهم أرض الأناضول وحولوها إلى أرض تركية إسلامية ، فحققوا أمجاداً كثيرة قبـــل أن تذهب ريحهم ، وتضعف دولتهم ويأفل نجمهم .

وقد أخذ التاريخ يذكر اسم السلاجقة منذ أواخر القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، وبدأت قوتهم تظهر على مسرح الأحداث فى أوائل القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ثم لم يلبث طغرل أول سلاطينهم أن جلس على العرش فى نيسابور فى عام ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) واعترف الخليفة العباسى بقيام دولتهم فى عام ٤٣٢ هـ (١٠٤٠ م) فاكتسبوا صفة شرعية ، وازدادت شوكتهم ، فلعبوا دوراً مهماً فى توجيه سير الأحداث وصاروا من أهم الدول التى ظهرت على مسرح التاريخ الإسلامى .

وكان العالم الإسلامى حين قيام دولة السلاجقة تتنازعه الخلافة العباسية فى بغداد والخلافة الفاطمية فى القاهرة والخلافة الأموية فى قرطبة وتتقاسمه دول

ودويلات متعددة سنية وشيعية يجدر التعريف بها لتتضح العوامل التى ساعدت على ارتفاع نجم السلاجقة، وسنعرض الدول التى احتك السلاجقة بها، وارتبط تاريخهم بتاريخها .

١ — الخلافة العباسية

كانت الخلافة العباسية حين ظهور السلاجقة ضعيفة واهنة فقد ازداد نفوذ الأتراك فى الدولة العباسية ، حتى سلبوا سلطة الخلفاء ، وتدخلوا فى شئون الدولة المختلفة ، وتحكموا — أحيانا — فى تولية الخلفاء وعزلهم ، أو سمل عيونهم أو قتلهم ، كما تدخلت النساء فى السياسة ، فكن أحيانا يوجهن دفتها ، وكثرت تولية الوزراء وعزلهم ، وتولية العهد أكثر من واحد ، مما أشعل نيران المنافسة والفتنة بين أمراء البيت الواحد .

والواقع أن الدولة العباسية أخذت فى الضعف والتخاذل منذ عهد المتوكل العباسى (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) (٨٤٧ — ٨٦١ م) حين أخذ نفوذ الأتراك فى الازدياد حتى سيطروا على المناصب المدنيـة والعسكرية ، وأمسكوا بزمام الأمور فى الدولة .

وقد ازدادت شوكة القواد من الأتراك منذ أوائل القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، وتفاقم خطر الدولة المستقلة ، فغلب نفوذ البويهيين فى فارس والرى وإصفهان وبلاد الجبل ، واستقل بنو حمدان بالموصل وديار بكر وديار ربيعة ومطر ، وسيطر الإخشيديون على مصر والشام ، ثم خلفهم الفاطميون ، وظفر السامانيون بحكم خراسان — ثم خلفهم الغزنويون ، فحلوا محلهم — ثم وسعوا رقعة دولتهم حتى شملت أكثر بلاد الهنـد ، كما أعلن عبد الرحمن الثالث الأموى نفسه خليفة فى بلاد الأندلس إذ أيقن أن سلطة

الخليفة العباسي فى بغداد قد ضعفت بعد خضوعه لنفوذ الأتراك والخدم والنساء .

وأدت هذه الأحوال المضطربة إلى تقلبات فى الأوضاع السياسية، وسقوط دول ودويلات وحلول أخرى محلها .

وكان للناحية الدينية ـ فى ذلك الوقت ـ أثر فى تكييف الأحداث وتوجيه دفة سيرها ، فقد أوجدت الخلافات المذهبية كثيراً من المنازعات ، كان بعضها باللسان ، وبعضها الآخر بالسنان، كما أوجدت انعدام الثقة والطمأنينة فى نفوس الناس ، ورواج التصوف ، وارتفاع قدر علماء الصوفية .

وكثرت البدع فى العصر العباسي ، وانقسم المسلمون شيعاً وطوائف ، وظهرت فرق كالزنادقة والمعتزلة والاسماعيلية وكانت هذه الفرق متناحرة فى كثير من الأحيان ، فكانت تناهض بعضها بعضاً ، ويحاول بعضها القضاء على الدولة العباسية نفسها .

وهكذا لم يكن للخلفاء العباسيين قوة مادية ملحوظة حين ظهر السلاجقة فى ما وراء النهر وخراسان ، وحاولوا تأسيس دولة لهم ، فلم يكن الخلفاء العباسيون قادرون على القيام بأدوار سياسية مهمة فى ذلك الوقت غير أنهم كانوا لايزالون يتمتعون بقوة معنوية عظيمة(١)، يستمدونها من كونهم خلفاء المسلمين ، وأمراء المؤمنين الذين تهفوا إليهم قلوب المسلمين فى جميع أرجاء العالم السنى ، مما جعل الحكام والسلاطين يحرصون على الظفر بموافقتهم على توليتهم السلطة ، حتى تكتسب سلطتهم صفة شرعية .

وقد كان القائم بأمر الله هو الخليفة العباسي حينما قامت دولة السلاجقة فى عام ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) . فلما طلب السلاجقة منه الاعتراف بقيام دولتهم

---

(١) البيرونى : الآثار الباقية ، ص ١٣٢ .

- فى عام ٤٣٢ هـ (١٠٤٠ م) - لم يتردد فى إعلان اعترافه ، وفى دولة طغرل أول سلاطينهم إلى زيارة بغداد .

٢ — الخلافة الفاطمية :

كانت الخلافة الفاطمية الشيعية قد اتخذت القاهرة عاصمة لها ، وكانت حين ظهور السلاجقة تبسط نفوذها على بلاد الشام ، ولكنها لم تكن أسعد حالا من الخلافة العباسية من حيث القوة المادية ، فقد كان الحاكم بأمر الله (٣٨٦ — ٤١١ هـ / ٩٩٦ — ١٠٢٠ م) هو الخليفة الفاطمى فى وقت ظهور السلاجقة على مسرح الأحداث ، وكانت الأحوال مضطربة فى مصر نظراً لما أصابها من جراء إنخفاض النيل مدة ثلاث سنوات متتالية (٣٩٨ - ٤٠١ هـ / ١٠٠٨ - ١٠١١ م)[1] من ناحية ، وسياسة الحاكم مع رعاياه على اختلاف أديانهم ومذاهبهم من ناحية أخرى ، وهى السياسة التى اتسمت بالعنف وكثير من التذبذب والاضطراب[2] .

ولما أعلن طغرل الأول قيام دولة السلاجقة فى عام ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) كان المستنصر بالله حفيد الحاكم بأمر الله هو الخليفة الفاطمى ، وكان إذ ذاك فى التاسعة من عمره فتدخلت أمه فى إدارة شئون الدولة ، وعظم نفوذ الوزراء وأخذ مركز الخلافة الفاطمية يتزعزع إلى حد كبير ، فبدأ نفوذ الفاطميين يتقلص ، وأخذت رقعة دولتهم تنكمش .

وكان ضعف الفاطميين من العوامل التى يسرت للسلاجقة - بعد تأسيس دولتهم وبسط سيطرتها على إيران والعراق والأناضول - فتح بلاد الشام ومهاجمة مصر نفسها .

---

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ، ج ٢ ، ص ١٥٣ .
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ١٢٦ .
(٣) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ، ج ٣ ، ص ١٥٥ .

٣ — السامانيون :

ظهر السلاجقة على مسرح التاريخ منذ أواخر القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ـ كما ذكرنا ـ فى ما وراء النهر ، فكانوا يجاورون السامانيين الذين كانت دولتهم فى مرحلة احتضار مما يسر للسلاجقة تثبيت أقدامهم فى تلك المنطقة .

والسامانيون ينتسبون إلى أسرة فارسية عريقة ، وقد بدأ نجمهم يرتفع فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) فصاروا ولاة على ماوراء النهر ، ثم امتد نفوذهم فشمل بلاد طبرستان والرى وقزوين ، وأقاموا علاقاتهم مع الخلفاء العباسيين على أساس من المودة ، والمصالح المتبادلة ، فكان الخلفاء يعتمدون عليهم فى إقرار سلطانهم فى بلاد المشرق .

ثم بدأ الصراع بين السامانيين والبويهيين ؛ وقامت حروب بين الطرفين وتبادلا النصر والهزيمة[1] ؛ كما شق بعض قواد السامانيين عصا الطاعة ، فأخذ الضعف يدب فى البيت السامانى ، وبدأ شبح الانهيار يظهر فى دولتهم منذ منتصف القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) .

وفى أواخر هذا القرن طمع فيهم جيرانهم من الخانيين والغزنويين ، فتقدم الخانيون بقيادة ايلك خان المعروف بيغرا خان التركى للاستيلاء على سمرقند ، كما انتهز السلطان محمود الغزنوى فرصة ضعف السامانيين فاستولى على نيسابور وبخارى واستقر ملكه بخراسان ، فأزال نفوذ السامانيين عنها .

ووقعت بلاد ما وراء النهر فى يد بغراخان الذى قصد بعد ذلك بخارى فدالت دولة السامانيين ، وقسمت البلاد التى كانت تحت سيطرتها بين

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٣٣٢ هـ .

الغزنويين والخانيين(١) ، أى أن السامانيين اختفوا من فوق المسرح السياسى فى خراسان وما وراء النهر ، بينما كان السلاجقة قد أخذوا يظهرون فوق هذا المسرح ليمثلوا دوراً أطول مـــدة وأبقى أثراً من الدور الذى مثله هؤلاء السامانيون .

٤ — الغزنويوں :

كان الغزنويون فى أوج قوتهم فى الوقت الذى ظهر فيه السلاجقة فقد كان يتزعمهم السلطان محمود الغزنوى الذى غزا الهند اثنتى عشرة مرة ، وضم إلى مملكته بلاد البنجاب ، وأخضع بلاد الغور وبلاد ما وراء النهر ، وأزال الدولة السامانية من خراسان ، وكال الضربات للبويهيين وتمكن من الاستيلاء على إصفهان .

وقد أدت حروب محمود الغزنوى إلى نشر الإسلام فى البنجاب وتوسيع رقعة دولته وبسط نفوذه ، فاكتسب مكانة عظيمة غبطه عليها معاصروه ، وأصبح من أبطال الإسلام الذين أحرزوا لقب « الغازى »(٢) ؛ إذ اصطبغت حملات محمود الغزنوى فى بلاد الهند بصبغة الجهاد الدينى ، لأنها أدت إلى نشر الإسلام فى هذه البلاد كما ظفر منها بغنائم وفيرة .

واتسعت ممتلكاته حتى امتدت شرقا إلى بلاد الهند ، وغربا إلى العراق العجمى ، وشمالا إلى خراسان وطخارستان وقاعدتها بلخ وجزء من بلاد ما وراء النهر ، وجنوبا إلى سجستان .

وكان ارتفاع شأن الغزنويين انتصاراً للعنصر التركى على العنصر الفارسى

---

(١) المرجع السابق ، حوادث سنة ٣٨٩ هـ ؛ إقبال : تاريخ ايران از ظهور اسلام تا حملة المغول ؛ ص ١٣٠ — ١٣٥ .

(٢) حمد الله مستوفى قزوينى : تاريخ گزيده ، ص ٣٩٦ .

فى ميدان الزعامة فى العالم الإسلامى فى ذلك الوقت ، غير أن هـذه الدولة ضعفت بعد موت السلطان محمود فى عام ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م) وازدياد قوة السلاجقة الذين لم يلبثوا أن أقاموا دولة صارت أكبر قـــوة فى العالم الإسلامى السنى .

والجدير بالذكر أن الغزنويين كانوا فى أوج قوتهم حين بدأ ظهور السلاجقة على مسرح التاريخ ، لأنهم ظهروا فى عصر محمود الغزنوى الذى كان أقوى حاكم فى العالم الإسلامى فى ذلك الوقت، فلم يستطيعوا الوقوف فى وجهه، ولم يفكروا فى مناوأته ، فلما توفى محمود عجز ابنه مسعود عن ملء الفراغ الذى تركه، لأن الفتن لم تلبث أن أطلت برأسها فى الهند وخراسان، فلما ظهرت قوة السلاجقة ، لم يستطع مسعود المتفرغ للقضاء عليهم ، فازدادت قوتهم ، وطمعوا فى أملاك الغزنويين، وتمكنوا من الاستيلاء على معظم بلاد خراسان، وأعلنوا قيام دولة لهم ، ورسخت أقدام دولتهم بعد انتصارهم على مسعود انتصاراً ساحقاً فى موقعة داندانقان فى عام ٤٣١ هـ (١٠٣٩ م) ، لم يفكر الغزنويون بعده فى مناوأة السلاجقة ، فاستقر نفوذهم فى إيران .

٥ — البويهيون :

كان البويهيون يسيطرون على أجزاء من إيران ، ويبسطون نفوذهم على الخلافة العباسية فى بغداد حين ظهور السلاجقة فى أواخر القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) .

والواقع أن البويهيين ظهروا منذ أوائل هذا القرن [١] فى صورة قوة تستطيع أن تلعب دوراً فى التاريخ ، ثم تمكن معز الدولة أحمد بن بويه من

(١) مسكويه : تجارب الأمم ، ج ١ ، ص ٢٧٨ — ٢٧٩ .

دخول بغداد فى عام ٣٣٤ هـ (٩٤٥ م) ، وبسط نفوذ البويهيين عليها .

وكان البويهيون يتعصبون للشيعة ، فلم يتورعوا عن التعدى على الخلفاء العباسيين ، والانتقاص من حقوقهم ، والتفكير فى إزالة الخلافة العباسية ، وإقامة خلافة علوية مكانها .

وقد انتهج البويهيون سياسة فى العراق كانت ذات أثر سيء فى هذه البلاد ، فقد أدت إلى قيام الفتن الطائفية ، وكثرة الثورات بين الجند[1] .

ولم يقتصر نفوذ البويهيين على العراق ، بل امتد إلى جهات أخرى كانت تابعة للعباسيين ، فوصل إلى عمان وفارس والرى وهمذان وإصفهان ، فذهبت هيبة الخلافة العباسية فى عهد البويهيين[2] ، فلم يبق منها إلا اسمها ، فلم يكن للخليفة العباسى من الأمر شيء سوى ذكر اسمه فى الخطبـــــة ، ونقشه على السكة .

غير أن نفوذ البويهيين أصيب بضعف شديد فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجريين ، أى حين ظهور السلاجقة ،فضعف سلاطين البويهيين ، وتنازع الأمراء فيما بينهم ،وازداد نفوذ الجند من الأتراك، فأخذوا يوجهون سير الأمور فى الدولة العباسية، ويتدخلون فى تولية سلاطين البويهيين وعزلهم ، ويحملونهم على أن يحلفوا لهم بالطاعة والوفاء ؛ والخليفة فى ذلك كله لا يملك إلا تنفيذ رغباتهم[3] .

فلما أخذ السلاجقة يثبتون دعائم دولتهم فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) كان سلطان البويهيين فى العراق

---

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ، ج ٣ ، ص ٤٤ .
(٢) البيرونى : الآثار الباقية ، ص ١٣٢ .
(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤١٩ هـ .

وبعض أجزاء إيران ضعيفاً متخاذلا ؛ وكانت البلاد التابعة لهم تسودها الفتن والقلاقل .

وكانت الحروب التي قامت بين الملك الرحيم — آخر حكام البويهيين — وبين إخوته من أهم عوامل ضعف دولتهم ، فإنه بدلا من أن يتحد الملك الرحيم وإخوته ويقفوا صفاً واحداً في وجه السلاجقة ، تناحروا فيما بينهم ، مما هيأ للسلاجقة الأقوياء سبيل الاستيلاء على بغداد في عام ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) وبذلك والت دولة البويهيين ، وصار السلاجقة أكبر قوة في العالم السني بخاصة والإسلامي بعامة .

* * *

هذا عرض موجز وسريع لأهم الدول والأحداث السياسية التي احتلت مكاناً في العالم الإسلامي في القرن الرابع الهجري وفي النصف الثاني منه بوجه خاص ، وفي النصف الأول من القرن الخامس الهجري ، خصوصاً ما كان منها في إيران وفي الأقاليم المجاورة لها ، أي في المناطق التي اتصل السلاجقة بها ، وهي أحداث ساعدت على قيام دولة السلاجقة ؛ وكان لها أثر في توجيه سياستهم ولننظر الآن كيفية قيام دولتهم .

الفصل الثانى

قيام دولة السلاجقة

تعريف بالسلاجقة :

الواقع أن المعلومات التى بين أيدينا عن أصل السلاجقة وحياتهم — قبل أن تذكر كتب التاريخ أخبارهم فى أواخر القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) — قليلة جداً لا تكفى لإعطاء فكرة دقيقة عنهم ؛ فكل ما نعرفه أنهم كانوا مجموعة من قبائل الأتراك الذين عرفوا باسم « الغز »[1] ، وأن هذه القبائل بدأت تهاجر من أقصى التركستان فى خلال القرون الهجرية الثانى والثالث والرابع[2] تحت ضغط ظروف قاهرة غير معروفة لنا على وجه التحديد ولكنها فى أغلب الظن لا تخرج عن ثلاثة أسباب ؛ أولها : سوء الحالة الاقتصادية نتيجة لكثرة عدد أفراد القبائل ، وعجز موارد الرزق عن الكفاية باحتياجات هؤلاء الأفراد .

وثانيها : حدوث قحط جعل الأماكن غير صالحة لاستمرار حياة القبائل فيها ، أما ثالثها فهو غلبة قبائل أكثر قوة عليها وسيطرتها على أراضيها مما اضطر القبائل المغلوبة إلى البحث عن مكان آخر تنزل فيه ؛ وتتخذه موطنا جديداً لها .

وأيا كان السبب الذى دفع قبائل الغز إلى الهجرة من أقصى التركستان إلى إقليمى ما وراء النهر وخراسان ، فإن أقدم الأخبار الذى وصلته إلينا عن

---

(١) كانت هذه القبائل تسمى « الأوغوز » ثم خففت هذه الكلمة فصارت « الغز » .

(٢) بهار : سبك شناسى ، ج ٢ ، حواشى ص ٢٤٥ .

هذه القبائل أنها فى أثناء هجرتها ولت وجهها شطر الغرب ، وحاولت النزول بالقرب من شواطىء نهر جيحون ؛ ثم حاولت الاستقرار فى إقليمى ما وراء النهر وخراسان .

وقد أخذ التاريخ يردد اسم السلاجقة منذ أواخر القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، وكانت طوائفهم حينذاك تسكن الهضاب القريبة من بحيرة خوارزم ؛ فتنزل بالقرب من السواحل الشرقية لبحر قزوين (أو بحر الخزر) ، وفى الهضاب المحيطة بنهرى سيحون وجيحون وكانت هذه المساكن تقع بين بلاد ما وراء النهر ؛ ومنازل طائفة من الأتراك المسلمين « القراق » .

وقد أطلق على هذه القبائل اسم السلاجقة بعد أن تولى رئاستها سلجوق ابن دقاق [1] نسبة إلى سلجوق هذا ؛ وكان لا يعرف لها اسم خاص قبل توليه رئاستها ، ويبدو أنه هو الذى جمع شملها ونظم صفوفها ، ووحدها تحت زعامته ؛ ثم قادها إلى تلك المنازل التى نزلت فيها فى عام ٣٧٥ هـ (٩٨٥ م)[2] فنسبت إليه وخضعت لحكم أبنائه وأحفاده من بعده .

وكانت منازل السلاجقة — فى ذلك الوقت — تجاور البلاد الخاضعة لنفوذ السامانيين والخانيين والغزنويين ، وهم من المؤيدين للمذهب السنى الذى يتولى زعامته الروحية الخليفة العباسى فى بغداد ، فأدى جوار السلاجقة لهم إلى اعتناقهم الإسلام ؛ وتعصبهم للمذهب السنى قبل أن يكونوا دولة .

ويسر اعتناق السلاجقة الإسلام لهم فرصة التقرب من حكام المسلمين المجاورين لهم ؛ والتدخل — أحيانا — فى المنازعات التى تثور بينهم .

---

(١) « دقاق » أو « تقاق » كلمة تركية معناها « القوس الجديد » ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٣٢ هـ .

(٢) حمد الله مستوفى قزوينى : تاريخ گزيده ، ص ٤٣٤ .

وقد استفاد زعيمهم سلجوق من مساعدته للسامانيين ، فأذنوا له بالمرور فى بلادهم ، والاستقرار بطوائف السلاجقة بالقرب من شاطىء نهر سيحون ، واتخاذ مدينة « جند » قاعدة له . ثم أخذ السلاجقة — منذ أواخر القرن الرابع الهجرى يجنحون إلى الاستقرار ، بالقرب من موارد المياه ، حيث توجد الأراضى الخصبة ، وتكثر المراعى اللازمـــة لدوابهم ، فيطيب لهم العيش ، ويحلو .

وبدأ القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) والسلاجقة [١] يستقرون فى بلاد ما وراء النهر بعد أن تمت هجرتهم من بلاد التركستان وكانت الدولة السامانية قد أنهارت فى عام ٣٨٩هـ (٩٩٨ م) فتوزعت أراضيها بين الخانيين والغزنويين ، وكانت منازل الشتاء تتركز فى الشتاء حول « نور » بالقرب من بخارى ، وتتجمع فى الصيف حول « سغـــد » بالقرب من سمرقند [٢] .

وكان السلاجقة عنصراً جديداً فى هذه البلاد ، فكانوا يختلفون عن عنصر السامانيين [٣] فى أنهم لم يألفوا حياة المدن والاستقرار من قبل ، بل عاشوا عيشة تغلب عليها سمات البداوة ، من ميل إلى التنقل والارتحال ، طلبا للرزق وانتجاعا لمواطن الكلأ ، فكانت جذور الحياة القبلية راسخة فى أعماق نفوسهم مما أثر فى دولتهم ، وفى حاضرهم ومستقبلهم أيما تأثير ، فقد اعتمد سلاطين السلاجقة على القبائل التركية اعتماداً كبيراً ، وكونوا من أفرادها جيوشهم [٤] ، وشجعوا القبائل السلجوقية على الوفود إلى إيران ، وغيرها من الأقطار الإسلامية .

---

(١) نفس المرجع والصفحة .
(٢) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٨٦ — ٨٧ .
(٣) نظامى عروضى سمرقندى : چهار مقاله ، ص ٢٣ — ٢٤ .
(٤) بهار : سبك شناسى ، ج ٢ ، ص ٢٤٦ .

وقد كون أفراد هـذه القبائل طبقة خاصة من طبقات المجتمع ، وكان سلاطين السلاجقة يضطرون — أحياناً — إلى إعطائهم مرتبات كالجنود سواء بسواء ، كما أن وجود هذه الطبقة كان مصدر فتنة وقلق فى الأوقات التى كان السلاطين فيها يحرمون أفرادها من مرتباتهم ، فكانوا يزيدون الحالة السياسية سوءاً واضطراباً ، كما أثر وجود القبائل والنظم القبلية فى مظاهر الحياة المختلفة .

وكان المظهر القبلى يغلب على سلاطين السلاجقة الأولين ، فكانوا غير مثقفين مما جعلهم فى حاجة ماسة إلى كثير من الموظفين لاستعمالهم فى المهام المختلفة[1] ، فبرزت طبقة الموظفين وازداد نفوذ بعض أفرادها تبعاً لأهمية مناصبهم ، أو لصلتهم بالسلطان السلجوقى ، وكان من أبرز أفراد هـذه الطبقة الوزراء والحجاب وقد استطاع هؤلاء أن يلعبوا دوراً بارزاً موجهاً فى كثير من الأحداث السياسية وغير السياسية ، بل إنهم استطاعوا أحياناً أن يسيطروا على سلاطين السلاجقة ، ويوجهوهم وفق إرادتهم .

كما أثرت غلبة النظام القبلى على السلاجقة فى سلاطينهم فجعلتهم لا يضعون نظاماً للحكم ، وولاية العهد ، فكانت مشكلة العرش مثلا تطل برأسها عقب وفاة كل سلطان ، وكان أقدر أفراد البيت السلجوقى عسكريا ، أو أقواهم شخصية ونفوذاً هو الذى يظفر بالعرش ، حتى ولو لم يكن هو الأكبر سنا .

وأدت غلبة النظام القبلى إلى عدم إدراك السلاجقة لأهمية ديوان البريد فألغوا هذا الديوان[2] ، كما لو يحاولوا الاستعانة بالحكماء والعلماء كثيراً ، بل غلبت عليهم الصبغة العسكرية ، وساعد على ذلك وجود كثير من القبائل

---

(١) برتلس : نظامى شاعر آذربيجان العظيم (بالروسية) ، ص ٩٣ .
(٢) نظامى عروضى سمرقندى : چهار مقاله ، ص ٢٣ — ٢٤ .

السلجوقية فى المدن الرئيسية فى إيران والعراق ، وقد أدت قوة النظام القبلى إلى إثارة الفتن والقلاقل فى كثير من مراحل تاريخ السلاجقة .

غير أن بداوة السلاجقة جعلتهم يشغفون بالمبانى الفخمة ، والنقوش الجميلة واللوحات المزخرفة . فقد كانت مثل هـذه الأشياء تبهر أنظارهم وترضى أذواقهم ، وتسد ما فى أنفسهم من فراغ حضارى بسبب بداوتهم ، وقـد أثر هذا فى الفنون المختلفة ، فراجت رواجا ملحوظا فى عصرهم ؛ فارتقت فنون النقش والتصوير والصنعة والمعمار ، فـكان السلاجقة بعامة يعشقون الفنون الجميلة ويرعونها[1] ، وكان سلاطينهم يحمون الفنون ،ويشجعون رجالها[2] .

كما أثرت بداوة السلاجقة فى تمسكهم الشديد بالإسلام بعد اعتناقهم له ، وتعصبهم لدينهم وللدفاع عنه ، وميلهم المفرط إلى أهل السنة والجماعة ، بعد أتباعهم المذهب السنى . وقد أثر هذا الأمر فى تصرفات السلاجقة فجعلهم يظهرون الولاء للخليفة العباسى فى بغداد ، ويحترمون أئمة الدين احتراما شديداً ، ويميلون إلى المتصوفة ، ويجعلون شيوخهم[2] ، فازداد التصوف فى عصرهم إنتشاراً وظفرت طوائف الصوفية باحترام الناس والحكام ، فارتفع شأن رجالها ، وعظم تأثيرهم فى حياة الناس .

وهـكذا أثرت غلبة العنصر السلجوقى ، وبداوة السلاجقة ، وغلبة النظام القبلى عليهم فى كثير من مظاهر الحياة ، وفى مختلف نواحى الحضارة فى دولة السلاجقة بعد قيامها وشكلت حاضرهم ومستقبلهم ، وخلقت آثاراً واضحة فى حياة الناس فى إيران والعراق وآسية الصغرى والشام فى ظل حكمهم .

---

(١) كريستى ويلسون : تاريخ صنايع إيران (ترجمة فريار) ص ١٤٢ .

(2) M.S.Dimand :A Hand book of Muhammdan Art, p.178

وهذا تعريف — لا بد منه — بالسلاجقة ، قبل الحديث عن ظهور قوتهم ، وقيام دولتهم حتى يستطيع فهم كثير من الأحداث التي كان لبداوة السلاجقة وعدم ظفر سلاطينهم الأول بحظ من التعليم أثر فيها ، لأن فهم الشخصية وكشف جوانبها يساعدان على فهم ما يصدر من هذه الشخصية من تصرفات .

ظهور قوة السلاجقة :

ذكرت أقـــدم المصادر التاريخية التي حوت أخبار السلاجقة أنهم اطمأنوا — في أوائل القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) — إلى إقامتهم في بلاد ما وراء النهر ، وكانوا يعيشون عيشة مريحة تتسم بشيء من الاستقرار تتخلله رحلة الشتاء والصيف ، وقد سعدت نفوسهم بهذه الحياة ، فأخذوا يستعدون للقيام بدور أكثر أهمية ، واستطاعوا في خلال سنوات قليلة تجهيز أنفسهم بالمال والعتاد ، وإعداد جيش وفير العدد كثير المدد ، قوي البأس ، فصاروا قوة يخشى بأسها ويرهب جانبها[١] .

وساعدهم إسلامهم ، وحرصهم على التمسك بأهداب الدين والتقرب من أئمته على الظفر بتأييد هؤلاء الأئمة ، فأدى هذا كله إلى غيرة الخانيين — في ما وراء النهر — منهم وحقدهم عليهم ، فحاولوا الإيقاع بهم للتخلص من خطرهم المتوقع ، ورأوا في السلطان محمود الغزنوي المنقذ الوحيد الذي يستطيع أن يخلصهم من شرهم ، ويقضي عليهم قضاء مبرما ، فاستعانوا به وأخذوا يخوفونه من كثرة عــدد السلاجقة ، وشدة بأسهم ، وخطورة وجودهم وراء ظهره[٢] .

(١) الراوندي : راحة الصدور ، ص ٨٦ — ٨٧ ، ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٣٢ هـ .

(٢) الراوندي : راحة الصدور ، ص ٨٧ — ٨٨ .

وكان محمود الغزنوى حينذاك قائداً مظفراً ، يغزو بلاد الهند بين الحين والحين ، وينشر الإسلام فى ربوعها ، ويوطد حكم المسلمين فيها ، ويحظى بتأييد الخليفة العباسى — كما مر — فلما أبلغه الخانيون ما وصل إليه السلاجقة من ثراء وقوة ، انتابته المخاوف من وجودهم فى بلاد ما وراء النهر ، وخشى أن يفكروا فى تكوين دولة تصبح شوكة فى ظهره ، وخطراً عليه ، بينما هو يواصل غزواته لبلاد الهند ، ويلون هذه الغزوات بصبغة الجهاد فى سبيل الله ونشر الإسلام فى ربوع هذه البلاد .

ومما زاد مخاوف محمود الغزنوى أن السلاجقة كانوا قد أخذوا يغيرون على المناطق المجاورة لهم ، ويحاولون توسيع ممتلكاتهم ، فكان طبيعياً أن يدرك محمود الغزنوى — بتجاربه الخاصة — كيف تتجمع القبائل ، وتتكون الجيوش ، ثم تقيم الدول ، فاستجاب لدعوة الخانيين للقضاء على هؤلاء السلاجقة ، واقتلاع خطرهم من تلك المنطقة ، وكان الخانيون حينذاك أصهار الغزنويين وأصدقائهم ، بعد أن تزوج محمود الغزنوى من بنت حاكم الخانيين ، فتحالف الغزنويون مع الخانيين ، وأخذوا يفكرون فى أنجع الوسائل للقضاء على قوة السلاجقة وفل شوكتهم والتخلص من شرهم ، ومزاحمتهم للخانيين فى بلاد ما وراء النهر .

وهكذا أخذت قوة السلاجقة فى الظهور ، وبدأ جيرانهم من الخانيين والغزنويين يحسون بوجودهم وقوتهم منذ أوائل القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ، فبدأت صفحة جـــديدة فى تاريخ السلاجقة ، وأخذوا يظهرون على مسرح التاريخ وبدت فى أفق إرهاصات ميلاد دولتهم الجديدة الفتية .

النزاع بين السلاجقة والغزنويين :

كان محمـــود الغزنوى فى عام ٤١٥ هـ (١٠٢٤ م) بالقرب من نهر جيجون[1] حينما اشتكى الخانيون له من خطر وجود السلاجقة فى بلاد ما وراء النهر ، وكان السلاجقة حينذاك قوة كبيرة بزعامة إسرائيل بن سلجوق ، ففضل محمود الغزنوى أن يستعين بالدهاء والحيلة لإضعاف شأن السلاجقة ، فأرسل إلى زعيمهم إسرائيل يعرض عليه رغبة الغزنويين فى كسب ود السلاجقة والتحالف معهم ، وعقد ميثاق معهم يسجل الود والصداقة والتعاون بين الطرفين بحجة أن المؤمنين إخوة ، وأن المسلمين ينبغى عليهم أن يتعاونوا فيما بينهم ، وألا يكون بأسهم بينهم شديداً ، كما عرض محمود الغزنوى على إسرائيل السلجوقى أن يلتقيا بالقرب من نهر جيحون للتباحث فى وسائل التعاون بين الغزنويين والسلاجقة[2] .

ورحب إسرائيل بما عرضه محمود الغزنوى ، فتوجه إسرائيل ومعه وجوه قومه من السلاجقة للقاء محمود الغزنوى بالقرب من نهر جيجون ؛ وكان محمود يدبر فى نفسه أمراً هو القبض على إسرائيل زعيم السلاجقة وكبار قومه بعد استقبالهم وإظهار الترحيب بهم . وقد نفذ مؤامرته فعلا ، فقبض رجاله على إسرائيل السلجوقى ووجوه قومه ، وألقوا بهم فى غياهب السجون . وكان نصيب إسرائيل قلعة كالنجار فى بلاد الهند . فقضى بها سبع سنوات إلى أن مات فى عام ٤٢٢ هـ (١٠٣٠ م) بعيداً عن أهله وعشيرته .

وقد أغضب هذا التصرف الغادر — من جانب محمود الغزنوى —

---

(١) كرديزى : زين الأخبار ، ص ٦٦ .

(٢) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٨٨ — ٩٠ .

السلاجقة أيما إغضاب ، وجعلهم يعقدون العزم على الأخـــذ بالثأر لزعيمهم إسرائيل ورفاقه من الغزنويين .

وتولى ميكائيل أخو إسرائيل زعامة السلاجقة بعده ، وكان قائداً ماهراً حكيماً ، حسن التفـكير والتدبير ، فأعد خطة محكمة تهدف إلى الانتقال بالسلاجقة إلى إقليم خراسان وتثبيت أقدامهم فى هذا الإقليم ، ثم الانقضاض على الغزنويين والأخذ بالثأر منهم ، ثم تـكوين دولة قوية تخلف الغزنويين فى إقليمى خراسان وما وراء النهر ، وتضع يدها على ما تستطيع إليه سبيلا من الأجزاء الأخرى من إيران .

وبدأ مكائيل فى تنفيذ خطته ، غير أنه رأى أن الاشتباك فى حروب مع محمود الغزنوى أمر قد يعصف بالبقية الباقية من قوة السلاجقة نظراً لقوة محمود ومكانته فى العالم الإسلامى ، وإجلال الخلافة العباسية له فآثر الاستعانة بالحيلة والدهاء لتحقيق أهداف السلاجقة، فأرسل إلى السلطان محمود الغزنوى[1] يلتمس منه الإذن للسلاجقة بالمرور من الأراضى التى تخضع لسلطانه ، والرحيل إلى إقليم خراسان ، والإقامة فى المنطقة الواقعة بين مدينتى « نسا » و« باورد » وعلم والى طوس بذلك ، فأرسل إلى السلطان محمود يحذره من السماح للسلاجقة بالوصول إلى خراسان ، لأن إقامتهم فى هذا الإقليم خطر يهدد دولته بأوخم العواقب ، فلم يأبه السلطان محمود بهذا التحذير ، اعتقاداً منه بأن قوة السلاجقة قد ضعفت بعد اعتقال زعيمهم إسرائيل وعدد عن كبار رجالهم ، فسمح لهم بالرحيل إلى خراسان فعبروا نهر جيجون ، واستقروا فى هذا الإقليم[2] .

---

(١) كرديزى : زين الأخبار ، ص ٦٧ .

(٢) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٦ ؛ الراوندى : راحة الصدور ، ص ٩٣ — ٩٤ .

وكان انتقال السلاجقة إلى خراسان مرحلة جديدة من مراحل كفاحهم في سبيل إنشاء دولة لهم، كما كان بعيد الأثر في تاريخ إيران بخاصة، وفي تاريخ غربي آسيا بعامة.

ولم يكد السلاجقة يستقرون في إقليم خراسان حتى أخذوا يدعمون قوتهم، وينتشرون في الأرجاء المجاورة لهم، ويتحينون الفرصة للانقضاض على الدولة الغزنوية، واقتلاع جذورها من خراسان وما وراء النهر.

وأحس أهل «نسا» و«باورد» بخطر السلاجقة — في أواخر عام ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) — فاشتكوا إلى السلطان محمود، فأمر والي طوس بإجلائهم. فهاجم معسكراتهم وهبوا هم لمقاومته فدارت بين الطرفين معارك حامية انتصر فيها السلاجقة انتصاراً باهرا، غير أن وصول الجيش الغزنوي إلى المنطقة حول نصر السلاجقة إلى هزيمة ساحقة[١].

وتوفي محمود الغزنوي في عام ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م)، فأخذت قوة الغزنويين بعده في الضعف، كما توفي ميكائيل[٢] زعيم السلاجقة، فخلفه في الزعامة ابنه طغرل، وكان له أخ — يكبره سنا — اسمه جغري، وكانا فارسين مقدامين يتمتعان بنفوذ كبير بين الجند وأفراد القبائل، فاستطاعا جمع السلاجقة بعد تفرقهم، وكونا جيشاً قوياً، وانتهزا فرصة وفاة السلطان محمود، فحاولا الأخذ بالثأر من الغزنويين، وتوسيع رقعة الأراضي التي يحتلها السلاجقة.

وأخذ طغرل بمساعدة أخيه جغري ينشر نفوذ السلاجقة على الأراضي المجاورة لمساكنهم حتى شمل نفوذهم كثيرا من أنحاء إقليم خراسان.

---

(١) كرديزي: زين الأخبار، ص ٧٠ — ٧١.

(٢) يفهم من كلام ابن الأثير أن ميكائيل توفي قبل وفاة محمود الغزنوي، ارجع إلى الكامل في حوادث ٤٣٢ هـ.

ولما اطمأن طغرل إلى عظم قوة السلاجقة ، طلب من والى نيسابور أن يأذن لقومه بالإقامة بالقرب من هذه المدينة .فتوجس والى نيسابور فى نفسه خيفة من هذا الأمر ، فرفض طلب السلاجقة ، واستعان بالسلطان مسعود بن محمود الغزنوى لدفع خطرهم ، وأسرع مسعود الغزنوى إلى نيسابور فى عام ٤٢٦ هـ (١٠٣٤ م) لفل شوكة السلاجقة ، واشتبك معهم فى معركة طاحنة ، انتصر عليهم فيها فى أول الأمر بالقرب من « نسا » غير أنهم ثبتوا فى أماكنهم ، ولم يلبثوا أن انتصروا على الغزنويين انتصاراً باهراً ، وأسقط فى يد مسعود الغزنوى ، فاضطر إلى عقد صلح معهم ، ترك لهم بمقتضاه منطقة خراسان . ورحل إلى بلاد الهند لتفقد شئونها(١) .

وقد استفاد السلاجقة من هذا النصر كثيراً ، فدعموا نفوذهم فى خراسان ، ولم يبق أمامهم إلى أن يعلنوا قيام دولة لهم فى ربوع هذه البلاد .

إعلان قيام دولة السلاجقة :

تهيأت الظروف للسلاجقة للسيطرة على اقليم خراسان بعد انتصارهم على الغزنويين فى عام ٤٢٦ هـ (١٠٣٤ م) ؛ وصار واضحا أن قوة السلاجقة فى خراسان أعظم من أن يتصدى لها الغزنويون أو أن يقضوا عليها ، وبرغم هذه الحقيقة الواضحة ضاق مسعود الغزنوى بالمكانة الكبيرة التى نالها السلاجقة فى خراسان ، وبتوطيد نفوذهم فى هذه المنطقة فحاول إجلاءهم عنها فتوجه على رأس جيش كبير وهجم على السلاجقة بالقرب من مدينة سرخس فى آخر شعبان من عام ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م)(٢) . ودارت بين الطرفين معركة حامية الوطيس انتهت بانتصار السلاجقة انتصاراً باهراً ، لم يجرؤ أحد بعده

---

(١) ارجع فى تفصيل هذا الأمر إلى تاريخ البيهقى ، ص ٥٧٦ — ٥٩١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٥٩ وما بعدها .

على الوقوف فى وجههم فى منطقة خراسان ، وصارت قوتهم أعظم قوة فى ربوع إيران .

وأصبح الوقت مناسباً لإعلان قيام دولة السلاجقة ، فتوجه طغرل قائدهم — فور انتصارهم على الغزنويين — على رأس جيش السلاجقة إلى نيسابور واستولى عليها ، ثم جلس على عرش مسعود فيها فى ذى القعدة من عام ٤٢٩هـ (١٠٣٧ م) وأعلن قيام دولة السلاجقة ، وأمر بقراءة الخطبة باسمه ، وأصبح بذلك أول سلطان للسلاجقة .

وهكذا جنى السلاجقة ثمار تنظيم صفوفهم ، وتوحيد قيادتهم ، وانتصاراتهم فأسسوا دولة فتية قوية ، لم تلبث أن أصبحت أقوى دولة فى العالم الإسلامى فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) .

والواقع أن عام ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) ينبغى أن يعد بداية « حقيقية لدولة » السلاجقة ، لأن اعتراف الخلافة العباسية بهذه الدولة كان أمراً شكلياً فى ذلك الوقت نظراً لضعف الخلفاء العباسيين وعدم قدرتهم على التدخل فى توجيه سير الأحداث ـ كما ذكرنا ـ ولذلك فقد باشر طغرل مهام عمله باعتباره أول سلطان سلجوقى منذ دخوله نيسابور وجلوسه على العرش ، برغم أن الخلافة العباسية لم تعترف بقيام دولة السلاجقة إلا فى عام ٤٣٢ هـ (١٠٤٠ م) حين طلب السلاجقة من الخليفة العباسى القائم بأمر الله الاعتراف بدولتهم وبطغرل سلطاناً على هذه الدولة لإعطائها صفة شرعية أمام الناس حتى يرضوا عنها ويؤازروها .

وكان قيام دولة السلاجقة حدثاً جديداً فى تاريخ إيران والعالم الإسلامى ، لأن السلاجقة لم يكادوا يظهرون على مسرح التاريخ فى صورة دولة قوية ، حتى لعبوا دوراً رئيسياً فى توجيه سير الأحداث فى العالم الإسلامى ، وفى البلاد الغير

الإسلامية المجاورة لبلاد المسلمين ، وكان للدور الذى لعبه السلاجقة آثار واضحة فى تاريخ إيران والعراق وآسيا الصغرى والشام ، ومازالت بعض هذه الآثار باقية إلى الوقت الحاضر .

وقد استطاع السلاجقة السيطرة على جزء كبير من العالم الإسلامى فى عصرهم ، وعلى كثير من ممتلكات الروم (الدولة البيزنطية) فى آسيا الصغرى والمناطق المجاورة لإيران ، فكان الدور الذى لعبوه على مسرح التاريخ دوراً مهماً ، جديراً بالتعريف به ، ودراسته دراسة تكشف أبعاده وآثاره .

ولم يمر إعلان قيام دولة السلاجقة دون معارضة أو مقاومة ، فقد جن جنون السلطان مسعود الغزنوى حينما علم باعتلاء طغرل العرش فى نيسابور ، وتلقبه بالسلطان « طغرل الأول » وصمم على التوجه مرة أخرى إلى خراسان عله يستطيع تأديب السلاجقة وإسقاط دولتهم ، ولكن جهوده باءت بالفشل فى النهاية[1] ، وكان آخر اشتباك بينه وبين السلاجقة عند « داندانقان » فى عام ٤٣١هـ (١٠٣٩م)،وقد هزم مسعود الغزنوى فى هذه الموقعة هزيمة نكراء ، انقلب بعدها إلى غزنة مدحوراً ، بينما غنم السلاجقة غنائم وفيرة ، ورجع طغرل إلى نيسابور عزيزاً منصوراً[2] .

وكانت موقعة « داندانقان » من المعارك الحاسمة فى تاريخ الغزنويين والسلاجقة على السواء،فقد صرف الغزنويون — بعدها — أنظارهم عن إيران فلم يفكروا فى منازلة السلاجقة والتصدى لهم ، كما أن السلاجقة بعد انتصارهم العظيم فى « داندانقان » أخذوا يفكرون فى السيطرة على أجزاء أخرى من

---

(١) ارجع فى تفصيل هذه الأحداث إلى تاريخ البيهقى ، ص ٦٩٥ وما بعدها ، ابن الأثير : الكامل ، فى حوادث ٤٣٠ هـ .

(٢) تاريخ بيهقى ، ص ٧٤٣ — ٧٦٤ ، الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٠٠ — ١٠١ .

إيران ، وقوى أمرهم قوة عجيبة بعد أن اجتمع حولهم جند كثيرون من جميع أطراف خراسان و،صارت دولتهم الفتية قوية الأركان ، وخشى جيرانهم بأسهم ، وفكر الكثيرون منهم فى الانضمام إليهم والدخول تحت لوائهم . فانحسر نفوذ الدولة الغزنوية عن إيران وما وراء النهر ، ولم تلبث دولة الغزنويين فى هذه النواحى أن دالت نهائياً ، وأخذت فكرة تكوين دولة عظمى تسيطر على أجزاء العالم الإسلامى المختلفة تداعب خيال طغرل ، وبدأت مرحلة جديدة من مراحل كفاح السلاجقة بقيادة سلطانهم طغرل الأول ، كانت تهدف إلى بسط سيطرتهم على إيران والعراق .

الفصل الثالث

سيطرة السلاجقة على إيران والعراق

سيطرة السلاجقة على إيران :

شرع السلاجقة بعد نصرهم المبين فى معركة « دندانقان » فى إرساء قواعد دولتهم وتدعيمها فى إيران ، فأخذوا يوحدون صفوفهم ، ويسدون الثغرات التى قد تثير المنازعات بينهم ، فاجتمع طغرل لهذا الغرض بأخيه جغرى بك ، وعمه موسى بيغو [1] ، وأبناء عمه وغيرهم من رجالات السلاجقة ، وتدارسوا خطوات السلاجقة التى ينبغى أن تتلو قيام دولتهم ، وتعاهد الجميع على أن يظلوا متحدين متماسكين ، وألا يدعوا للتفرق والتنازع سبيلا إلى قلوبهم حتى يظلوا أقوياء مظفرين [2] ، ثم أكدوا اتفاقهم على تعيين طغرل الأول قائداً أعلى لجيوشهم ، وسلطاناً على دولتهم ، وتعاهدوا على أن يدينوا له بالولاء دائماً .

ولم يكن طغرل الابن الأكبر لميكائيل ، فقد كان أخوه جغرى يكبره سنا [3] ؛ ولكن طغرل كان يتمتع بشخصية قوية وذكاء حاد ، وشجاعة فائقة ، وتدين ملحوظ . فأدت هذه الصفات جميعاً إلى التفاف الجند والقبائل حوله . وإسلامهم القيادة له .

---

(1) كان لكل واحد من ولاة السلاجقة الأول اسم قبلى واسم إسلامى ، فطغرل هو الاسم القبلى أما الاسم الإسلامى فمحمد ، وجغرى الاسم القبلى يقابله الاسم الإسلامى « داود » و « بيغو » الاسم القبلى يقابله الاسم الإسلامى « موسى » .

(2) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٠٢ .

(3) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٠١ .

وكان طغرل خير من يحمل الأمانة ، فصمم على تحقيق أهداف السلاجقة التي ترمى إلى إنشاء دولة قوية تسع العالم الإسلامى كله ، لو استطاعت إلى ذلك سبيل .

ورأى طغرل أن أن إرساء قواعد الدولة يحتاج إلى جمع الكلمة . وتكتيل القوى ، فاستعان بأفراد أسرته في تحقيق برنامجه الضخم ، فعين كل واحد منهم والياً على ولاية من الولايات ، وسيره إليها ، وسمح له بأن يفتح ما يستطيع فتحه من الجهات المجاورة لها . ويضم ما يفتحه إلى منطقة نفوذه دون منازع ، على ألا يؤدى هذا الفتح الى التنازع مع فرد آخر من أفراد أسرته وقتاله .

وكان السلاجقة جميعاً يخضعون لرئاسة طغرل الذى قرر أن يتجه بنفسه لفتح العراق والولايات القريبة منه ، وأن يتخذ مدينة « الرى »[1] عاصمة له .

وهكذا رتب السلاجقة أمورهم ، وحددوا أهدافهم . ولم يبق أمامهم إلا أن يعطوا دولتهم الصفة الرسمية ، ويصبغوها بالصبغة الشرعية بأن يحصلوا على موافقة الخليفة العباسى على قيامها . واعترافه بسيطرتها على الأقاليم التى تحت يدها ، والمناطق التى قد تسيطر عليها فى المستقبل ، فكتبوا فى عام ٤٣٢ هـ (١٠٤٠ م] رسالة الى الخليفة العباسى القائم بأمر الله . أظهروا فيها ولاءهم له ، وحبهم للجهاد فى سبيل الله ، وابتغاء مرضاته ، ثم بينوا له مافعله السلطان محمود الغزنوى بعضهم اسرائيل بن سلجوق . وكيف الوفاة ، كما سبق كثيراً من أقاربهم ورجالاتهم ، وشرحوا للخليفة حالة المسلمين فى عهد مسعود بن محمود ، وفهموا سوءها ، نظراً لانشغاله باللهو والشراب . وإهماله أمر الرعية ، مما جعل

(١) كانت « الرى » قديما هى المدينة وكانت « طهران » إحدى ضواحيها ، ثم انعكس الوضع بمرور الأيام فصارت « طهران » هى المدينة وأصبحت إحدى ضواحيها .

عظماء خراسان يختارون السلاجقة لحماية المسلمين ، ورعاية مصالحهم ، ثم ذكروا مهاجمة مسعود لهم ، وما حدث من حروب ، أظفرهم الله عليه – أكثر من مرة – فيها حتى تمت الغلبة لهم ، وطلبوا فى نهاية الرسالة أن يعترف الخليفة بقيام دولتهم ، وبطغرل سلطاناً عليهم ، حتى تكون ولايتهم شرعية ؛ على أساس من الدين ، وأمر من أمير المؤمنين[1]

ثم انصرف كل وال منهم إلى المنطقة التى وضعت تحت نفوذه وكان يعد ملكاً عليها ، فكانت له الحرية المطلقة فى حكمها ، وفى فتح الأقاليم المجاورة لها ، دون أن يتعدى على غيره من أفراد أسرته ، وقد حاول كل منهم أن يحسن سيره حتى ينضم الناس إليه ، ويساعده العلماء ورجال الدين .

وبعد أن اطمأن طغرل باتحاد أفراد أسرته وتماسكهم ، ثم بسيرهم للاستيلاء على أجزاء إيران المختلفة ، بدأ هو فى تنفيذ ما بقى من خطته لإتمام سيطرة السلاجقة على إيران والعراق ، وكان عليه أن يقضى على البقية الباقية من نفوذ الديالمة فى كل من إيران والعراق حتى تتم السيطرة لقومه ، فقام – من أجل ذلك – بحروب كثيرة ، متعددة الميادين ، وساعدته الحالة فى المشرق الإسلامى فى ذلك الوقت – كما مر – فانتصر فى حروبه جميعها ، وأدرك غايته ، وأصاب أهدافه ، واستعان فى جميع أعماله بألب أرسلان ابن أخيه جغرى ، فعد هذا بمثابة تعيينه ولياً لعهده[2] .

سيطرة طغرل على إيران :

وقد بدأ طغرل تنفيذ خطته فى عام ٤٣٣ هـ (١٠٤١ م) فولى وجهه شطر

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٠٢ — ١٠٤ .

(٢) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٠٤ — ١٠٥ .

جرجان وطبرستان للقضاء على حكم آنو شيروان الزيارى الذى كان يسيطر على هذين الإقليمين ، فلما علم آنو شيروان بتوجه طغرل إليه ، وأيقن أنه لا طاقة له به ، أعلن خضوعه له ، وتعهده بإطاعته ، وأداء ضريبة سنوية له ، فضم طغرل هذه المنطقة إلى حوزته [1] ، ثم لم يلبث أن عين عليها والياً من قبله ، فكان هذا إيذاناً بسقوط الدولة الزيارية فى إيران [2] .

ثم توجه طغرل فى عام ٤٣٤ هـ (١٠٤٢ م) لفتح خوارزم وتمكن من ضمها إلى ممتلكات السلاجقة هى وما جاورها ثم رحل بعد ذلك إلى الرى ، ودخلها فى العام نفسه ، واتخذها عاصمة له ، ومقراً لحكومته [3] .

ووصلت رسالة السلاجقة ، إلى بغداد ، فسر بها الخليفة العباسى القائم بأمر الله أيما سرور ، وتقبلها بقبول حسن ، ورد عليها رداً رقيقاً ، وأرسل رسولا من قبله إلى طغرل ، فتوجه إلى الرى ، يصحبه مبعوث السلاجقة ، حيث دعا المبعوث العباسى السلطان طغرل لزيارة بغداد ، غير أنه أرجأ زيارته إلى أن يفرغ من فتح الأقاليم الغربية والجنوبية من إيران بعد أن اطمأن إلى استقرار الحالة على حدود دولته الشرقية ، فأقام رسول الخليفة ثلاث سنوات فى الرى ثم عاد إلى بغداد بعد أن أكد له طغرل عزمه على زيارة بغداد فى الوقت المناسب [4] .

ثم اشتغل طغرل بفتح الأقاليم الغربية ، وتمكن من بسط نفوذه على

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٣٣ هـ .

(٢) ينتسب إلى وشمكير الزيارى أخى مرداويج وكانت الدولة الزيارية تسيطر على أجزاء كثيرة من إيران من أهمها جرجان وطبرستان وجيلان وقد حكمت من ٣١٦ إلى ٤٣٣ هـ (٩٢٨ — ١٠٤١ م) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٣٤ هـ .

(٤) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٠٥ .

قزوين ، وأبهر ، وزنجان ، وهمذان ، وإقليم آذربيجان ، فخضع له بذلك أمراء الديلم ، كما أرسل طائفة من الجند لفتح كرمان [١] ، وأخذ يتفقد الأجزاء التي تحت أيدي السلاجقة حتى يطمئن إلى رسوخ قواعد دولتهم في إيران .

وأرسل ـ أخاه من أمه ـ إبراهيم اينال إلى همذان والأجزاء الغربية لدعم نفوذ السلاجقة فيها ، فتوجه في عام ٤٣٧ هـ (١٠٤٥ م) من كرمان إلى همذان للقيام بهذه المهمة [٢] ، ولكن الأحوال ظلت غير مستقرة في الأجزاء الوسطى والغربية من إيران ، فعاود طغرل الكرة بنفسه في عام ٤٤١ هـ (١٠٤٩) ، فتوجه إلى هذه الجهات ، وأحس بتمرد أخيه إبراهيم إينال ، فرأى أن يبدأ بهمذان ، فأرسل إلى أخيه ، يطلب منه تسليم القلاع التي تحت يده ، فلما رفض حاربه طغرل ، ولكن إبراهيم أينال لم يصمد طويلا ، فلم يلبث أن استسلم لأخيه السلطان ، الذي عفا عنه ، ولم يعاقبه على تمرده .

وأخذ طغرل بعد ذلك يتفقد الأقاليم الغربية من إيران ، حتى ثبت سيطرة السلاجقة عليها ، وقبل حاكم ديار بكر ذكر اسمه في الخطبة [٣] .

ثم توجه في أوائل عام ٤٤٢ هـ (١٠٥٠ م) لفتح إصفهان والأجزاء الجنوبية من إيران ، وكانت إصفهان منيعة ، فعكف على حصارها عاما ، أرسل في خلال جزءاً من جيشه لفتح فارس وما جاورها ، فتم له ذلك ، ثم لم تلبث إصفهان أن سقطت في يده في المحرم من عام ٤٤٢ (١٠٥١ م) فأسقط بذلك دولة الديالمة من آل كاكويه ، كما بسط نفوذه على يزد وما جاورها [٤] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٣٤ هـ .
(٢) المرجع السابق ، حوادث سنة ٤٣٧ هـ .
(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٤١ هـ .
(٤) المرجع السابق ، حوادث سنة ٤٤٢ هـ .

وبقى عليه أن يتوجه إلى إقليم آذربيجان ليؤكد سيطرة السلاجقة عليه ، فسار إليه فى عام ٤٤٦ هـ (١٠٥٤ م) . ودخل تبريز ؛ ثم استطاع أن يبسط نفوذ السلاجقة على جميع أجزاء آذربيجان وأن يجعله يمتد حتى يشمل بعض أجزاء بلاد الروم (آسية الصغرى) . ثم رجع إلى عاصمته الرى [١] .

وكان قد فرغ بذلك من فتح أكثر أجزاء إيران . وبسط نفوذ السلاجقة على إيران . وبعض البلاد المجاورة لها ، فأخذ يستعد لدخول بغداد ، وبسط سيطرة السلاجقة على العراق .

سيطرة السلاجقة على العراق :

كانت الخلافة العباسية فى بغداد مضطربة مزعزعة ، تتلاعب بها أهواء البويهيين وقواد الجند ـ كما ذكرنا ـ دون أن تكون للخليفة قوة الصمود فى وجه تيار الأحداث ، فضلا عن القيام بدور إيجابى فيها ؛ فكانت الخلافة العباسية فى ذلك الوقت جسداً لا روح فيه . لأن الخليفة كان دمية فى يد قائد جند الأتراك ، وكان هذا القائد يسيطر على بغداد وما جاورها سيطرة تامة ، فلم يكن الخليفة القائم بأمر الله يملك قوة واقتـــداراً أمام القائد التركى وجنوده .

وكان هذا القائد ـ فضلا عن ذلك ـ شيعيا . يميل إلى الفاطميين فى مصر ويتصل بهم فى الخفاء . ويحاول أن يبسط نفوذهم على بغداد إذا واتته فرصة مناسبة . فيحقق لهم بذلك حلما طالما راودهم منذ استيلائهم على مصر فى عام ٣٥٨ هـ (٩٦٨ م) ألا وهو الانتقام للعلويين من العباسيين . وإسقاط الخلافة العباسية، والسيطرة على بغداد.

---

(١) ابن الأثير ، حوادث سنة ٤٤٦ هـ .

وكان نفوذ البويهيين - المتمسكين بالمذهب الشيعي - ما زال مبسوطاً في بغداد، فكان اسم الملك الرحيم أبي نصر البويهي، يذكر في الخطبة في بغداد ولكنه كان ضعيفاً أمام أبي الحارث أرسلان البساسيرى قائد جند الأتراك - وجنوده، ولم يكن على وفاق معه، فانعدم التعاون بينهما، كما لم يكن هناك تفاهم بين الخليفة والبساسيرى (١).

وقد شجعت هذه العوامل جميعها السلطان طغرل على التوجه إلى بغداد لبسط نفوذ السلاجقة عليها؛ فسار في المحرم من عام ٤٤٧ هـ (١٠٤٥ م) إلى همذان، وأظهر أنه يريد الحج، وإصلاح طريق مكة، والمسير إلى الشام ومصر وإزالة المستنصر بالله الخليفة الفاطمي، فأمر عماله في المناطق المجاورة للعراق العربي بجمع الجند، ثم دخل العراق، فأسرع الملك الرحيم البويهي إلى بغداد واستقر الرأي بينه وبين الخليفة العباسي القائم بأمر الله على التعاون مع طغرل (٢) فأمر الخليفة بأن يذكر اسم طغرل في الخطبة، وأن يكون لقبه السلطان ركن الدولة أبا طالب طغرل بك محمد بن ميكائيل يمين أمير المؤمنين، على أن يذكر بعد اسمه اسم الملك الرحيم أبي نصر بن أبي كاليجار سلطان الدولة البويهي، ثم دخل طغرل بغداد دخول الظافرين، فاستقبل أروع استقبال، واعترف الخليفة به سلطاناً على جميع المناطق التي تحت يديه (٣).

ولم يلبث طغرل أن أمر بالقبض على الملك الرحيم، وأرسله أسيراً إلى الري، فألقى في السجن حتى توفى في عام ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) (٤).

وسلم الخليفة العباسي بالأمر الواقع، فأمر — في رمضان من عام ٤٤٧ هـ

---

(١) ارجع في بيان هذا إلى ابن الأثير: الكامل: حوادث سنتي ٤٤٦، ٤٤٧ هـ.

(٢) المرجع السابق حوادث سنة ٤٤٧ هـ.

(٣) الراوندي: راحة الصدور ص ١٠٦.

(٤) ابن الأثير: الكامل حوادث سنة ٤٥٠ هـ.

(١٠٥٥ م) — بإسقاط اسم الملك الرحيم من الخطبة [١]، فأسدل الستار على دولة آل بويه، بعد أن كانت مسيطرة على بغداد والخليفة، وحلت محلها في السيطرة دولة السلاجقة.

أما البساسيرى فكان متصلا بالخليفة المستنصر بالله الفاطمى منذ خروجه عن طاعة الخليفة العباسى القائم بأمر الله فى عام ٤٤٦ هـ (١٠٥٤) م، فلما رأى « طغرل » يشق طريقه إلى قلب الخلافة العباسية، انسحب من بغداد وماجاورها وولى وجه شطر الموصل، ووالى الاتصال بالفاطميين.

وأقام طغرل فى بغداد ثلاثة عشر شهراً، توثقت فى خلالها صلاته بالخليفة العباسى القائم بأمر الله، وازدادت هذه الصلات توثقاً بزواج الخليفة فى عام ٤٤٨ هـ (١٠٥٦ م) بابنة جغرى بك أخى طغرل، فقد ساعدت هذه المصاهرة على التقرب بين البيتين العباسى والسلجوقى، فى بغداد وتم لطغرل ما أراد.

غير أن القائد التركى البساسيرى لم يلبث أن جاهر بالعصيان وأخذ يعد العدة للاستيلاء على الموصل، فالتحم به أنصار طغرل بالقرب من سنجار فى شوال من عام ٤٤٨ هـ (١٠٥٦ م)[٢] ولكنه انتصر عليهم انتصاراً ساحقاً وواصل سيره حتى دخل الموصل، ثم أمر بقراءة الخطبة فيها باسم الفاطميين فاضطرب الخليفة العباسى، واحتمى بطغرل، وعينه والياً على الموصل وبلاد الجزيرة، فاضطر طغرل إلى السير من بغداد فى عاشر ذى القعدة من العام نفسه قاصداً الموصل، وتمكن من قمع فتنة البساسيرى فى عام ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م)، وبسط نفوذه على ديار بكر، ثم عين أخاه إبراهيم إينال والياً على الموصل

---

(١) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق، ص ١٠، حمد الله : تاريخ گزيده، ٤٢٧.
(٢) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٤٨ هـ .

والجزيرة ، وقفل راجعاً إلى بغداد بعد أن استتب نفوذ السلاجقة فى هذه البلاد ، فأحسن الخليفة استقباله ، ولقبه بملك المشرق والمغرب ، واعترف بنفوذ السلاجقة على جميع الأراضى التى تحت أيديهم ، بينما فر البساسيرى صوب الشام[١].

غير أن إبراهيم إينال حدثته نفسه بالخروج مرة أخرى على أخيه طغرل فترك الموصل فى عام ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م)[٢] وولى وجهه شطر همذان فأسرع طغرل فى إثره وأوقع به هزيمة شنيعة فى معركة فاصلة بالقرب من الرى ، ولم يصفح عنه طغرل هذه المرة ، بل أمر بقتـــله ليستريح من شره ، فخمدت فتنته نهائياً[٣].

وانتهز البساسيرى فرصة اندلاع نيران هذه الثورة ، فعاود احتلال الموصل ثم انتهز فرصة ترك طغرل لبغداد ، وانشغاله بإخماد فتنة أخيه . فهاجم بغداد نفسها ، ولم يجرؤ الخليفة على الوقوف فى وجهه ، فترك دار الخلافة ، وولى هارباً ، فأسره البساسيرى ، وأرسله إلى عانه ، واحتل بغداد فى اليوم الثامن من شهر ذى القعدة من عام ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م)[٤] وأمر بقراءة الخطبة فى بغداد نفسها باسم الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، وحذف اسم العباسيين منها ، فحقق بذلك أمنية ، طالما تاقت إليها نفسه ، ونفوس الفاطميين جميعاً .

وقوى أمر البساسيرى فتمكن من الاستيلاء على واسط والبصرة ، وفزع أنصار الخليفة إلى طغرل ، فثارت حميته ، فلم يكد يفرغ من إخماد فتنة أخيه حتى أسرع بالتوجه إلى بغداد ودعا الخليفة العباسى إلى العودة إلى دار الخلافة

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٠٧ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٥٠ هـ .

(٣) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ١٥—١٦ .

(٤) الراوندى : راحة الصدور ، ١٠٨ ؛ البندارى ، مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ١٦ .

وعلم البساسيري بذلك ففر إلى الشام ودخل الخليفة القائم بأمر الله وطغرل بغداد ، ثم أرسل طغرل جيشاً لقتال البساسيري فالتقى به فى الطريق إلى الكوفة ، ودارت بين الطرفين معركة طاحنة انتهت بمصرع البساسيري فى منتصف ذى الحجة من العام نفسه ، ثم أرسلت رأسه إلى الخليفة وبذلك وضع طغرل حداً لطغيان البساسيري وفتنته وأسقط اسم الفاطميين من الخطبة فى بغداد بعد أن ظل يذكر فيها أكثر من عام[١].

وأصبح طغرل سيد الموقف فى العراق بعد هذه الانتصارات المتلاحقة ، فاستتب له كل شىء فى هذه البلاد ، وبسط نفوذ السلاجقة فيها كما بسطه فى إيران ، وسيطر على الخليفة العباسى سيطرة تامة ، فلم يكن الخليفة يستطيع التصرف — حتى فى ممتلكاته الخاصة — بعد أن ترك لطغرل كل شىء ، وقبل أن يجرى عليه أرزاقه ويرتب له ما يكفى لسد جميع نفقاته[٢].

وبلغت قوة طغرل فى العراق حداً جعله يفكر فى مصاهرة الخليفة العباسى القائم بأمر الله بالزواج من ابنته[٣] ؛ فكلف وزيره أبا نصر الكندرى بالقيام بهذه المهمة . وقد فزع الخليفة العباسى من فكرة مصاهرة السلاجقة ، وإعطاء ابنته لطغرل ، فرفض أول الأمر ، ولكنه هدد وخوف ، فأرغمته عوامل الضعف والخوف على القبول مضطراً ، غير أن « طغرل » لم يهنأ بهذا الزواج طويلا[٤] ، لأنه سرعان ما مرض ثم لم يلبث أن توفى فى الثامن من رمضان.

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٠٩ ؛ البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ١٨ ؛ ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٥٠ هـ .

(٢) حمد الله : تاريخ گزيده ، ص ٤٣٨ .

(٣) هذا ما ذكره البندارى فى مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ١٧ — ٢٢ ، وابن الأثير فى الكامل ، فى حوادث سنة ٤٥٤ ، أما الراوندى فقد ذكر فى راحة الصدور ، ص ١١١ أن طغرل تزوج أخت الخليفة لا ابنته .

(٤) ذكر البندارى فى مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٢٥ ، وابن الأثير فى حوادث

من عام ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) وكان إذ ذاك فى السبعين من عمره ، بعد أن تمت للسلاجقة الغلبـــة على إيران العراق ، واحتلت دولتهم مكانا مرموقا على مسرح التاريخ .

والواقع أن « طغرل الأول » هو المؤسس الحقيقى لدولة السلاجقة فى إيران والعراق ، فهو الذى رتب أمورها ، وبسط نفوذها ، وأظهر قوتها ، وكان هو سلطانا قوياً مظفراً موفقا ، فقد انتصر فى أكثر الحروب التى خاض غمارها مما ساعد على تحقيق أغراضه ، وبلوغ أهدافه .

كما كان طغرل مسلما يحب أهل السنة ، ويميل إليهم ، ويحرص على أداء الفرائض ، والتقرب من أئمة الدين[1] ، فساعد هذا على ازدياد صلة إيران بالخلافة العباسية ، وظلت هذه الصلة قوية فى أثناء حكم السلاجقة ، مما كان له أبعد الأثر فى اختلاط الإيرانيين بالعراقيين وامتزاج حضارة كل من البلدين بالأخرى ، فأصبحا يمثلان معاً صورة واضحة صادقة للحضارة الإسلامية ، فى مرحلة من أهم مراحلها .

وقد وضع طغرل أساساً متيناً لدولة السلاجقة ، يبسط نفوذها على إيران والعراق ، فاستطاع خلفاؤه أن يقيموا على هذا الأساس بناء شامخا ، ومجداً عظيماً ، وانتهى بانتهاء طغرل دور التأسيس ، وأخذ السلاجقة من بعده يرتفعون بالبناء حتى أشرف على بلاد الروم ، وسواحل البحر الأبيض المتوسط والهند والصين ؛ حينما بلغ السلاجقة أوج قوتهم ، وشامخ رفعتهم .

= سنة ٤٥٥ هـ أن طغرل دخل بابنة الخليفة وعاش معها سبعة أشهر ، وهذا هو الصحيح . أما الراوندى فقد ذكر فى راحة الصدور ، ص ١١١ — ١١٢ أن طغرل مرض وتوفى قبل أن تزف إليه ابنة الخليفة .

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٩٨ — ٩٩ .

وقد ساهم أبو نصر منصور بن محمد الكندرى[1] وزير طغرل - وكان يلقب بعميد الملك - بنصيب وافر فى إرساء ذلك الأساس، وتدعيم أركانه، وكان لكفاءته أثر كبير فى ازدهار دولة السلاجقة، وارتفاع شأنها فضلا عن أنه كان من الكتاب الجيدين باللغتين العربية والفارسية، فاكتسب منصب الوزارة بفضله أهمية كبيرة وصار هدفا، تتطلع إليه الأبصار، وتهفو إليه النفوس، فأصبح مثاراً لكثير من المنازعات التى لعبت دوراً مهما فى توجيه سير الأحداث فى دولة السلاجقة.

---

(١) ارجع إلى ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٤٥٦ هـ، لمعرفة شىء عن الكندرى وسيرته.

الفصل الرابع

السلاجقة فى أوج قوتهم

واصلت دولة السلاجقة اتساعها ، وازداد شأنها ارتفاعا فى عهد ألب آرسلان خليفة طغرل وفى عهد ملكشاه بن ألب آرسلان ، وكان السلاجقة يواجهون مشكلتين عقب وفاة كل سلطان هما : التنازع حول العرش والتنافس حول الوزارة .

التنازع حول العرش :

توفى طغرل الأول عن دولة قوية ، راسخة الأركان ، ثابتة البنيان ولم يكن له ولد يرث عرش السلاجقة من بعده ، فبرزت مشكلة ولاية العهد ، عقب وفاته وأصبحت مثار تنافس بين أفراد البيت السلجوقى .

وكان أخوه جغرى قد توفى فى رجب من عام ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م) تاركا عدداً من الأبناء ، كان أكبرهم ألب آرسلان . فخلفه فى حكم خراسان وما وراء النهر . وكان حاكما على هذه الأجزاء حينما توفى عمه طغرل فى عام ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) يعاونه وزير قوى النفوذ واسع الحيلة ، يسمى أباعلى حسن ابن على بن اسحق الطوسى ويلقب بنظام الملك ، فرأى ألب آرسلان أنه أحق الناس باعتلاء عرش السلاجقة بعد عمه طغرل ، وتاقت نفس نظام الملك إلى أن يصبح وزيراً لسلطان السلاجقة فشجع ألب آرسلان على إعلان نفسه سلطانا على السلاجقة ، وخليفة لعمه الراحل .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٥١ هـ .

غير أن طغرل كان قد تزوج أرملة أخيه جغرى فأقامت معه فى الرأى ، هى وابنها سليمان بن جغرى ، فاستطاعت أن تؤثر عليه ، وتجعله يختار ابنها هذا وليا لعهده ـ رغم صغر سنه ـ ، فلم يكد طغرل يتوفى حتى نفذ وزيره أبو نصر الكندرى وصيته . فأجلس « سليمان » على عرش السلاجقة فى الرى ، وأمر أن تقرأ الخطبة باسمه [١] .

وتوالت الأنباء إلى سمع ألب آرسلان بجلوس سليمان على العرش فى الرى ، فعز ذلك على نفسه ، ولم يطلق صبراً ، فصمم على السير إلى مدينة الرى ، ووجد تصرفه هذا هوى فى نفوس كثير من أفراد البيت السلجوقى ، فاختاروا جانبه ، فلم يجد الكندرى بداً من الخضوع للأمر الواقع خشية أن يحل عليه غضب ألب آرسلان ، وطمعاً فى أن يظل متمتعاً بشىء من الجاه والسلطان ، فأعلن هو أيضاً انضمامه إلى ألب آرسلان ، وأمر بقراءة الخطبة باسمه فى الرى ، وبأن يكون سليمان ولياً لعهده [٢] .

وهكذا انتهت فتنة سليمان بن جغرى واستتب الأمر لأخيه الأكبر ألب آرسلان فى ذى الحجة سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) [٣] ، واعترف أكثر أفراد البيت السلجوقى به سلطاناً ، فأخذ يستعد للجلوس على عرش السلاجقة فى الرى .

ولكن فتنة أخرى لم تلبث أن أطلت برأسها ، وقد أيقظها شهاب الدولة قتلمش بن إسرائيل ابن عم جغرى ، فأعلن أنه أحق بالسلطنة من

---

(١) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٢٦ .

(٢) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١١٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤١٥ هـ .

(٣) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١١٦ .

ألب آرسلان ، ورفع علم الثورة ثم توجه إلى الري ، وتمكن من الاستيلاء عليها ، وأعلن نفسه سلطانا على السلاجقة .

ولكن ألب آرسلان أسرع بالتوجه إلى الري على رأس جيش كبير ، مصطحباً معه وزيره نظام الملك ، وخرج قتلمش للقائه ، فالتحم الجيشان في معركة طاحنة فاصلة بالقرب من الري ، انجلت عن هزيمة قتلمش ومصرعه ، فدخل ألب آرسلان الري في آخر المحرم من عام ٤٥٦هـ (١٠٦٣م[١])، فانتهت بذلك مشكلة عرش السلطنة ، واستتب الأمر لألب آرسلان دون منازع .

* * *

التنافس على الوزارة :

ولم يكد التنازع حول عرش السلطنة ينتهي ، حتى لاحت في أفق السلاجقة مشكلة جديدة هي مشكلة كرسي الوزارة، فبدأ التنافس بين نظام الملك وعميد الملك على الظفر بهذا الكرسي ، فقد كان عميد الملك الكندري وزير طغرل مقيما في الري حينما دخلها السلطان الجديد ألب آرسلان ووزيره نظام الملك ، فأكد ولاءه للسلطان وتقرب إليه بالهدايا ، حتى تطامن نفس السلطان إليه ، ولاحظ نظام الملك أن كثيراً من الجند يحبون الكندري ويلتفون حوله ، فخشي بأسه وأيقن أن الكندري يهدف إلى الاحتفاظ بمنصب الوزارة الذي وليه منذ عهد طغرل ، فاستقر رأي نظام الملك على البطش بالكندري قبل أن يظفر بشيء ، وأخذ يحرض السلطان عليه، ويجسم له خطره، ولم يزل بالسلطان حتى أوجس في نفسه خيفة منه ، فأمر بالقبض عليه ، وأودعه السجن في مدينة

(١) البنداري : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٣٢٩ ؛ ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٥٦ هـ .

نسا[١] ، وخلص كرسى الوزارة لنظام الملك دون منافس ، ولكنه لم يقنع بهذا بل استمر فى تحريض السلطان على الكندرى حتى أمر بقتله فى السجن ؛ وهدأت بذلك نفس نظام الملك ، واطمأن إلى استتباب الوزارة له ، كما استتب العرش لألپ آرسلان .

وكان قتل الكندرى سنة سيئة فى عصر السلاجقة ، فقد أدى العمل بها إلى قتل عدد من وزراء السلاجقة ، واكتوى نظام الملك نفســـه بنارها فيما بعد .

وقد حدثنا التاريخ أن الكندرى نبه إلى خطر هذه السنة السيئة قبيل قتله ، فالتمس من قاتله أن يحمل عنه ـ بعد قتله ـ رسالتين شفويتين ، وأن يبلغ إحداهما للسلطان والأخرى للوزير ، أما رسالته إلى السلطان فهى قوله : « إن هذه أجل خدمة أديتها لى ، فقد منحنى عمك الدنيا لأحكمها ، ومنحتنى أنت الآخرة ؛ لأن أمرك بقتلى جعلنى أحظى بالشهادة ، وأظفر بأجر الشهداء ، فظفرت بفضل خدمتك هذه بالدنيا والآخرة معاً » .

وأما رسالته إلى الوزير فهى قوله : « إنك قد سننت سنة سيئة بقتل الوزراء ، وإنى لأرجو أن تنفذ هذه السنة فيك وفى أعقابك » [١] .

ومهما يكن من شىء ؛ فإن مشكلتى العرش والوزارة قد استنفذتا عاماً وبضعة أشهر من عصر ألپ آرسلان ، ثم أخذت أوضاع السلاجقة تستقر فى بداية عام ٤٥٧ هـ (١٠٦٤ م) ، فبدأ ألپ أرسلان يفكر فى إقامة بناء الدولة معتمداً على الأساس الذى أرساه طغرل فى إيران والعراق .

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١١٧ ؛ وقد ذكر البندارى فى مختصر تواريخ آل سلجوق ص ٢٩ ، وابن الأثير : فى الكامل ، فى حوادث سنة ٤٥٦ هـ ـ أن الكندرى سجن عاماً ثم قتل فى مدينة مرو الروذ .

(٢) الراوندى . راحة الصدور ، ص ١١٧ — ١١٨ .

أهداف السلاجقة :

وتدارس ألب آرسلان الأمر مع وزيره نظام الملك ، ثم رسما معاً سياسة السلاجقة ، وحددا أهدافهم القريبة والبعيدة ، فاتفق رأيهما على ضرورة بسط نفوذ السلاجقة على مناطق جديدة ، حتى تتسع رقعـــة دولتهم ، فيعظم شأنهم .

وكان ألب آرسلان - كعمه طغرل - قائداً ماهراً مظفراً ، كما كان وزيره نظام الملك رجلا حكيما ، وسياسياً محنكا ، بعيد النظر ، ثاقب الفكر ، فرجحا ألا تقتصر سيطرة السلاجقة على العالم الإسلامى فى ذلك الوقت ، بل يجب أن تتعداها إلى الأقاليم المسيحية المجاورة لإيران كبلاد الأرمن وبلاد الروم ، لأن هذا سوف يكسب حروب السلاجقة صبغة دينية ، ويعطيها طابع الجهاد فى سبيل الله ، لنصرة دينه ، ونشره فى الآفاق ، فترتفع راية الإسلام خفاقة فى مختلف الأرجاء[1] .

غير أن ألب آرسلان فوجىء بفتنة جديدة ، يقودها عمه « بيغو » الذى كان والياً على هراة ، فقد عز على نفسه أن يصير تابعاً لابن أخيه ، فرفع راية العصيان ، وحاول الاستقلال بالمناطق الخاضعة لحكمه . فاضطر ألب آرسلان إلى تغيير خط سيره ، فولى وجهه شطر هراة ، لتأديب « بيغو » ورده إلى طاعته وقاتله بالقرب من هذه المدينة فى عام ٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م) ، وانتصر عليه انتصاراً مؤزراً ، تعهد بعده بإطاعته ، فانتهز ألب آرسلان هذه الفرصة ، وقام بتأديب كل من تخشى ثورتهم فى تلك النواحى ، وأعاد الأمن إلى نصابه فى جميع أنحاء خراسان وما وراء النهر ، ثم رجع إلى نيسابور .

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١١٨ وما بعدها .

واستقر رأى ألب آرسلان على العمل على تثبيت أركان حكمه فى البلاد الخاضعة لنفوذ السلاجقة قبل التطلع إلى فتح أقاليم جديدة ، فجعل أهدافه القريبة تدعيم نفوذه فى إيران والعراق، وجعل أهدافه البعيدة فتح البلاد المسيحية المجاورة لدولته من ناحية ، وإسقاط الخلافة الفاطمية فى مصر ، وتوحيد العالم الإسلامى تحت راية الخلافة العباسية السنية ونفوذ السلاجقة من ناحية أخرى .

وأخذ ألب آرسلان بتفقد أجزاء دولته المترامية الأطراف ، فاستغرق هذا منه بضع سنوات - إلى عام ٤٦٣ هـ (١٠٧٠ م) - وبدأ بالأجزاء الجنوبية فتوجه من خراسان إلى اصفهان ، وأمن حدود دولته الجنوبية بالاستيلاء على شبانكاره فى عام ٤٥٨ هـ (١٠٦٥ م)، وعلى فارس فى عام ٤٥٩هـ[1] (١٠٦٦م) ثم توجه إلى كرمان[2] ، فأحسن أخوه قاورد استقباله ، وطمأنه على استتباب الأمن فى تلك الناحية من بلاده ، ثم رجع إلى مرو بعد أن استوثق من رسوخ حكم السلاجقة فى إيران والعراق . وزال ما كان يخشاه من قيام فتن وثورات داخلية ، فأخذ يرنو ببصره إلى أهدافه البعيدة ، ووجد أن الفرصة قد تهيأت لتحقيق هذه الأهداف، فعقد العزم على الشروع فى تنفيذها ، كما فكر فى تأمين ظهره حتى لا يطعن من الخلف ، وهو مشغول بتحقيق أهدافه، وكانت ترابط على حدوده فى تلك النواحى دولتان لا تزال فيهما بقية من قوة هما الدولة الغزنوية فى غزنة والهند ، والدولة الخانية فى ما وراء النهر، فرأى ألب آرسلان ووزيره نظام الملك أن خير وسيلة هى أن ترتبط السلاجقة بالغزنويين والخانيين برباط المصاهرة ، فكانت تركان خاتون ابنة طمغاج خان ملك الخانيين من نصيب ملكشاه بن ألب آرسلان وولى عهده بينما تزوج أخوه ملك ابنة سلطان

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، فى حوادث سنة ٤٥٩ هـ .

(٢) كان قاورد حاكما على ولاية كرمان منذ عام ٤٣٣ هـ (١٠٤١ م) .

الغزنويين ، وهدأ بال السلاجقة ، فانصرف سلطانهم إلى تحقيق أهدافهم الكبرى[1] ، وقد قرر أن يبدأ بفتح الأقاليم المسيحية المجاورة لدولته ، فاتجه صوب الغرب لفتح بلاد الأرمن وجورجيا والأجزاء المجاورة لها من بلاد الروم .

وكان أهلها يكثرون من الإغارة على إقليم آذربيجان ، حتى أصبحوا مصدر قلق لسكانه ، فأراد ألپ آرسلان أن يضع حدا لغاراتهم ، ويضع يده على بلادهم ، لأنها كانت النوافذ التي تطل على ممتلكات الروم (الدولة البيزنطية) .

* * *

النزاع بين السلاجقة والروم :

تجاوز ألپ آرسلان إقليم آذربيجان وأخذ يغزو البلاد المسيحية المجاورة له وتمكن — في مدة قصيرة — من الاستيلاء على الجزء الأكبر من البلاد الواقعة بين بحيرتي وان وأورميه ، ووضع يده على قلاعها ، كما فتح جورجيا ، وبلاد الأرمن ، وعمل على نشر الإسلام وحضارته في هذه المنطقة ، حتى تأخذ غزواته طابع الجهاد في سبيل الله ، والعمل على نصرة دينه ، فكان طبيعياً أن يحدث احتكاك بين السلاجقة والروم ، فقد أغضبت فتوحات ألپ آرسلان رومانوس ديوجينس Romanos Diogènes امبراطور الروم ، فصمم على القيام بحركة مضادة ، وسار على رأس جيش كبير لغزو بلاد الشام ، وتمكن من التغلب على أمير حلب ، الذي كان حينذاك يدين بالولاء للخليفة الفاطمي في مصر .

---

(١) الراوندي : راحة الصدور ، ص ١١٨ وقد بلغت به المبالغة إلى حد قوله إن ألپ آرسلان غزا جميع أنحاء العالم .

وعلم ألب آرسلان بذلك ، فأرسل جيشاً بقيادة ابنه ملكشاه لفتح هذه البلاد . ولتحقيق هدف آخر من أهداف السلاجقة وهو القضاء على الخلافة الفاطمية فى مصر والشام . فلما ترامت الأنباء إلى والى حلب بقرب وصول جيش السلاجقة — وكان يدرك قوتهم ، وشدة بأسهم — أيقن أنه لا طاقة له بهم ، فأعلن انضمامه تحت لوائهم ، وحذف اسم الفاطميين من الخطبة ، وأحل محله اسم الخليفة العباسى القائم بأمر الله واتقى بذلك خطر الغزو السلجوقى لبلاده .

وقد تمكن جيش ملكشاه من الاستيلاء على جزء كبير من بلاد الشام ، كما استطاع أن يستولى على بيت المقدس فى عام ٤٦٣ هـ (١٠٧٠م) ثم حاصر دمشق غير أنه لم يتمكن من فتحها فى ذلك الوقت .

ومهما يكن من شيء ، فقد نجح الجيش السلجوقى فى بلاد الشام فى تأمين الجيش السلجوقى الرئيسى الزاحف إلى بلاد الروم[(١)] وتمهيد سبيله .

وفهم رومانوس خطة السلاجقة ، فعزم على القيام بحركة هجوم مضادة فجمع جيشاً جرارا يضم أخلاطا من الشعوب المسيحية تمثل الروس والفرنسيين والبلغاريين ، واليونانيين والجورجيين ، وذرع به بلاد الروم ، ثم عسكر فى نواحى « ملاز كرد » بالقرب من مدينة « أخلاط » .

فأحس ألب آرسلان أنه أمام خطر داهم . فأسرع بالهجوم على مقدمة جيش الروم ، واستطاع أن يحرز نصراً ، ولكنه لم يلبث أن أيقن أنه من الصعب على جيشه أن يقاتل جيشاً ضخما كجيش الروم ، وأدرك أن الصلح قد يكون خيرا له . وفضل أن يرجىء غزو بلاد الروم إلى فرصة أخرى بعد

---

(١) كانت آسية الصغرى تسمى فى ذلك الوقت بلاد الروم .

أن يستكمل استعداداته ، فأرسل رسولا إلى رومانوس يدعوه إلى الصلح ، غير أن هذا الامبراطور أشاح بوجهه فى غطرسة وكبرياء ، ولم يستمع إلى رسول السلاجقة ، فقد اغتر بجيشه الضخم ، فطرد الرسول قائلا إن الصلح لن يتم إلا فى الرى عاصمة السلاجقة .

فاتضح لألب آرسلان هدف الروم الحقيقى ، فرأى أن يصبغ الصراع بصبغة دينية فأعلن بين جنوده أن الإسلام فى خطر ، وأنه لا سبيل إلى إنقاذه إلا بالقضاء على هذه العصبة الفاجرة التى تريد الكيد له ، ودعاهم إلى الاستماتة فى القتال ، وبذلك طبع ألب آرسلان الحرب بطابع دينى ، وحملها جهادا فى سبيل الله .

واشتدت حماسة جنود السلاجقة ، فهجموا على رومانوس وجنوده فى جرأة واستماتة ، واشتبكوا معهم فى معركة حامية الوطيس بالقرب من ملازكرد ، وأمعن السلاجقة فى الروم تقتيلا وتجريحا ، حتى فرشوا ساحة القتال بجثثهم ، ووقع رومانوس نفسه أسيرا فى أيديهم ، وحاقت الهزيمة بجنوده وسيق رومانوس إلى ألب آرسلان فى ذلة وصغار ، فأمر بجلده ثم سجنه ، ولم يفرج عنه إلا بعد أن افتداه قومه بمبلغ كبير من المال ، وانتهى الأمر بعقد معاهدة مدتها خمسون عاما بين الطرفين ، تعهد الروم فيها بدفع الجزية للسلاجقة ، وصرف رومانوس نظره عن هذا الجزء من آسية الصغرى نهائيا ، ثم رجع إلى دياره مدحورا .

وقد كانت موقعة ملازكرد نقطة تحول فى التاريخ الإسلامى بصفة عامة ، وتاريخ غربى آسية بصفة خاصة ، لأنها يسرت القضاء على نفوذ الروم فى أكثر أجزاء آسية الصغرى مما ساعد على القضاء على الدولة نفسها على أيدى الأتراك العثمانيين بعد ذلك .

وهكذا تابع الأتراك السلاجقة الكفاح الذى قام به العرب ضد الروم ، فقد كان أباطرة الروم يحرصون على وضع أيديهم على بلاد الأرمن وما جاورها، ويعدونها قنطرة بين الغرب والشرق ، مما جعل هذه البلاد موضع نزاع بين الفرس والروم قبل الإسلام ، غير أن كفة الروم كانت هى الراجحة غالبا ، ثم حاول المسلمون أن يضعوا أيديهم عليها ، أو أن يبسطوا عليها نفوذهم فى أية صورة من الصور ، ولكن نفوذ الروم بقى قويا طاغيا ، حتى حدثت موقعة « ملازكرد » ، فأخذ هـذا النفوذ ينحسر تدريجيا حتى تلاشى تماما .

وطبيعى أن نتيجة هذه الموقعة كانت بعيدة الأثر فى الناحية السياسية، ومختلف نواحى الحضارة الأخرى ، فقد كانت الحضارة اليونانية ، والآداب المسيحية هى التى تسيطر على هذه البلاد ، وتمتد منها إلى حدود آذربيجان ، فلما أفل نجم الروم من أفق هذه المنطقة، وأخذ نفوذهم فى الانكماش وبدأت أجزاء بلاد الروم تفلت من أيديهم جزءا فى إثر جزء ، وتنضم إلى العالم الإسلامى ، تبع ذلك حلول الحضارة الإسلامية محلها ؛ وجاءت الحضارة الإسلامية بعقائدها ونظمها وآدابها وجميع مظاهرها ، فأخذ الإسلام والحضارة الإسلامية ينتشران فى تلك البلاد ، كما بدأت اللغة الفارسية تنتشر فيها ، فقد كانت الفارسية هى لغة الجنود الفاتحين لهذه البـلاد ، وهى اللغة الإسلامية التى تلى العربية فى أهميتها ، وقد مهد انتشارها لظهور اللغة التركية الحديثة بعد ذلك ، وكان هذا كله بداية لتطور جديد فى تاريخ الحضارة الإسلامية بصفة عامة ، ظهرت ثماره بعـد ذلك على أيدى الأتراك العثمانيين .

وكان فتح بلاد الروم نتيجة طبيعية منطقية لموقعة ملازكرد وكان

أشبه بفتح بلاد الهند على يد السلطان محمود الغزنوى من قبل ، فكما نشر هذا الفتح نفوذ المسلمين وحضارتهم فى بلاد الهند ونشر اللغة الفارسية فيها ، وكان سبباً فى إيجاد اللغة الأوردية ، فأصبحت لغة إسلامية لها آثار ملموسة حتى وقتنا هذا ، فقد يسر انتصار ألب آرسلان فى موقعة ملازكرد إحداث هذا التحول الكبير فى منطقة آسية الصغرى ، مما يجعل هذه الموقعة إحدى المواقع الموجهة فى التاريخ الإسلامى بصفة عامة . وتاريخ السلاجقة وغربى آسيا بصفة خاصة .

نهاية ألب آرسلان :

ولكن ألب آرسلان لم يعش حتى يجنى ثمار نصره العظيم ، ويواصل فتوحاته ، ويحقق أهدافه البعيدة جميعها فقد قتل بعد عام وبضعة أشهر من هذا الفوز الكبير ، على يد أحد الثائرين[١] .

فقد دب خلاف بينه وبين أصهاره من الدولة الخانية ، وكان ألب آرسلان إذ ذاك مشغولا يستعد لقتال الروم ، فلما فرغ من أسر رومانوس فكر فى التوجه إلى الشرق لقمع فتنة الخانيين ، فعبر نهر جيحون فى أوائل عام ٤٦٥هـ (١٠٧٢ م) وهاجم إحدى القلاع الثائرة واستولى عليها ، وقبض على قائدها ، وكان يسمى يوسف الخوارزمى . ونظراً لما أبداه هذا القائد الثائر من عناد فى مقاومته ، فقد رغب ألب آرسلان فى قتله بنفسه ، ويقال إنه أمر بإحضاره أمامه فلما مثل بين يديه رماه بسهم ، ولكن السهم أخطأه ، وكان يوسف هذا يخفى سكيناً فى ساقه فأخرجها . وهاجم السلطان على حين غرة وطعنه بها طعنة نافذة فتوفى متأثراً بجراحه ، بعد أربعة أيام من هذه الحادثة فى

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٢٠ — ١٢١ .

العاشر من ربيع الأول من العام نفسه . ودفن فى مدينة مرو بعد أن حكم تسعة أعوام ونصف عام تقريبا[1] .

والواقع أن عصر ألب آرسلان يعد من أهم عصور سلاطين السلاجقة ، لأنه استطاع أن يوطد دعائم دولتهم ، وأن يرتفع بالبناء حتى أصبح شامخا يحس العالم فى ذلك الوقت بوجوده ، ويستشعر قوته وتماسكه .

وقد أبرز عهد ألب آرسلان قوة السلاجقة، كما أظهر قوة العالم الإسلامى وجعلها مرهوبة ، يحسب لها العالم المسيحى ألف حساب . حقيقة إن الدول المسيحية قامت بعد ذلك بحملات صليبية متعددة على الشرق الإسلامى ؛ وانتصرت فى بعض الأحيان ؛ ولكنها باءت بالفشل فى النهاية على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب .

وقد قام نظام الملك — وزير ألب آرسلان — بدور موجه فى سياسة الدولة السلجوقية ، فاشترك بحسن سياسته ، ودقة تدبيره فى إنجاح أهداف السلطان ، فأعطى لمنصب الوزارة أهمية ورونقا ، وجعله منصبا مرموقا تتطلع إليه أبصار كبار رجال الدولة ، ويكون مثاراً للتنازع بينهم ، مما سوف نتبينه بوضوح بعد اختفاء نظام الملك من مسرح السياسة السلجوقية فى أواخر عهد ملكشاه .

وظهرت قوة هذا الوزير بوضوح بعد مصرع ألب آرسلان ، فقد قام على مواصلة تنفيذ السياسة التى رسمها فى عهد هذا السلطان ، فلم تضع مجهودات ألب آرسلان سدى بعد وفاته بل ظل البناء قائماً بفضل حكمة

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٢٠ — ١٢١ ، ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٦٥ هـ .

وزيره ، ومعاونته لابنه وخليفته ملكشاه حتى استطاع أن يلي العرش ، ويوطد سلطنته ، ويوسع حدود بلاده .

. . .

تجدد النزاع على عرش السلاجقة :

كان ملكشاه يرافق أباه في حملته التي قام بها لتأديب الخانيين ، فلما قتل والده ، رجع هو على رأس جيش السلاجقة إلى خراسان ، وجلس على العرش في نيسابور ، وأسند الوزارة إلى نظام الملك ، وكتب إلى حكام الأطراف بذلك حتى يطيعوا أمره ، ويخضعوا له ، كما كتب إلى الخليفة العباسي في بغداد ، ليصدر التفويض له بالسلطنة ، ويأمر بأن يذكر اسمه في الخطبة[1] ، وهكذا استقام الأمر لملكشاه ، فتوجه من نيسابور إلى الري ، ليكمل ما بدأه أبوه .

ولكن مشكلة الأحقية بالعرش بدأت تطل برأسها من جديد ؛ فإن قاورد لم يكد يعلم بنبأ وفاة أخيه ألب أرسلان ، حتى ترك كرمان وتوجه إلى الري ، وأعلن أنه أحق بالسلطنة من ابن أخيه ملكشاه ، وأخذ يستولي على الأقاليم المختلفة ، وهو في طريقه إلى الري ، غير أن ملكشاه استطاع هو ووزيره نظام الملك أن يسبقاه في الوصول إلى هذه المدينة ، ثم سارا منها للقائه في الطريق ، فالتقيا به بالقرب من همذان ، وتمكنا بمساعدة أمراء العرب والأكراد من الانتصار عليه ، ثم سيق قاورد أسيراً أمام ابن أخيه ملكشاه فأمر بقتله ليتخلص من شره[2] ، وأقر كرمان بيد أولاده ، فتوارثوا

---

(١) ابن الأثير : الكامل حوادث .

(٢) الراوندي : راحة الصدور ، ص١٢٦ — ١٢٧ ، البنداري : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٤٨ ، محمد بن إبراهيم : تاريخ سلجوقيان كرمان ، ص ١٣ .

حكمها إلى عام ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) وسميت دولتهم فى التاريخ باسم «سلاجقة كرمان» ، وأقطع ملكشاة العرب والأكراد إقطاعات كثيرة ، لما أبلوه فى الحرب من بلاء حسن .

• • •

وارتفع شأن نظام الملك ، فرد السلطان الأمور كلها إليه ، وأقطعه إقطاعا وافراً ، وخلع عليه ، ولقبه ألقاباً من جملتها أتابك ، ومعناه الأمير أو السيد الوالد ، لما ظهر من كفايته وشجاعته ، وحسن سيرته[1] .

فتوحات ملكشاه :

لم يقتصر ملكشاه على الولايات التى ورثها عن أبيه ، بل صمم على تنفيذ برنامج أبيه ، وتوسيع دولة السلاجقة ، وبسط نفوذها حتى يشمل جميع أنحاء العالم الإسلامى ، بما فى ذلك الأقاليم التى تحت سيطرة الفاطميين ، فولى وجهه شطر الشام ، وسواحل البحر الأبيض المتوسط ، لعله يستطيع غزو مصر ، والقضاء على الدولة الفاطمية التى كانت تتداعى فى ذلك الوقت .

وكان ملكشاه — كما علمنا — قد توجه لفتح الشام أثناء حياة والده ألب آرسلان ، ووصل جيشه إلى بيت المقدس فى عام ٤٦٣ هـ (١٠٧٠ م) ثم أرسل جيشه لضم مصر ، فظل يتوغل فى الأراضى المصرية حتى بلغ القاهرة وحاصرها ، غير أنه لم يستطع فتحها ، لاستماتة الفاطميين فى الدفاع عنها ، فارتد جيش السلاجقة إلى الشام ، ولم يفكر فى غزو مصر مرة ثانية ، ولكنه حرص على تأمين بلاد الشام ، وانتزاعها من ملك الفاطميين .

ثم أسند ملكشاه أمر بلاد الشام إلى أخيه تاج الدين تتش فى عام ٤٧٠هـ

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٦٥ هـ .

(١٠٧٧ م) ، وسمح له بفتح ما يستطيع فتحه من الأقاليم المجاورة لها ، وضم ما يفتحه إلى حوزة السلاجقة ، فتوجه تتش فى عام ٤٧١ هـ (١٠٧٨ م) إلى حلب ليردها إلى منطقة نفوذه ، فلما وصل إليها حاصرها ، حتى حلت بأهلها مجاعة شديدة ، وانتهز الفاطميون فرصة انشغال تتش بإعادة فتح حلب فأرسلوا جيشاً لفتح دمشق ، فعكف الجيش الفاطمى على حصار هذه المدينة ، ولم يجد حاكمها بداً من الاستنجاد بتتش فأسرع تتش لنجدته ، فلما سمع الجيش الفاطمى بأنباء اقترابه انسحب دون قتال[١] ، ودخل تتش دمشق دخول الظافرين فى عام ٤٧٢ هـ (١٠٧٩ م) واتخذها مقراً له ، وأسس فيها دولة سلاجقة الشام ، وحاول أن يحسن سيرته ، ويعدل فى حكمه .

وعمل ملكشاه على توطيد نفوذ السلاجقة فى آسية الصغرى ، وكانت هذه البلاد قد فتحت أبوابها فى وجه السلاجقة بعد موقعة ملازكرد ، فعين — فى عام ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ م) — سليمان بن قتلمش بن اسرائيل[٢] والياً عليها ، فوضع يده على ولايتى قونية وآق سرا ، وهو يعد فى الحقيقة المؤسس الفعلى لدولة سلاجقة ، الروم التى ظلت تحكم هذه البلاد إلى عام ٧٠٠ هـ (١٣٠٠ م) .

وقد تمكن سليمان من توطيد نفوذ السلاجقة فى بلاد آسية الصغرى ثم حاول توسيعه بفتح أقاليم جديدة ، ففتح مدينة أنطاكية فى عام ٤٧٧ هـ (١٠٨٤ م) وكانت من بلاد الشام ، غير أنها كانت تحت حكم قياصرة الروم منذ عام ٣٥٨ هـ (٩٦٨م)[٣] ولذلك كان فتحها بالغ الأهمية ، لأنه

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٧١ هـ .

(٢) سليمان هذا هو ابن عم جغرى بك جد السلطان ملكشاه .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٧٧ هـ .

جعل نفوذ الدولة السلجوقية يمتد إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط ، ولكنه أشعل نيران الفرقة بين أفراد البيت السلجوقي ، فبدأ التنازع بين سليمان وتتش ، فقد حاول كل منهما أن تكون منطقة نفوذه أوسع ، ففكر في الاستيلاء على جزء من الأقاليم الخاضعة لنفوذ الآخر .

وكان سليمان هو الذى بدأ بالعدوان ، فقد فكر فى الاستيلاء على حلب ، وضمها إلى منطقة نفوذ سلاجقة الروم ، بعد أن تم له فتح أنطاكية ، فسار إليها ، وحاصرها حصاراً شديداً ، حتى استنجد حاكمها بتتش ، فصادف ذلك هوى فى نفسه ، لأنه كان قد أوجس خيفة من اتساع نفوذ سليمان ، وامتداده إلى بلاد الشام ، فأسرع لصد سليمان عن حلب ، ودارت بين الطرفين رحى معركة طاحنة بالقرب من هذه المدينة انتهت بانتصار تتش ، وقتل سليمان فى صفر من عام ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م)(١) ، ودخل تتش حلب ، وضمها إلى حوزة سلاجقة الشام .

وأحس ملكشاه بما حدث فى هذه الأجزاء من دولة السلاجقة فآثر أن يتوجه بنفسه ليطمئن على استقباب الأمور فيها ، فتوجه فى شهر جمادى الآخرة من العام نفسه من إصفهان إلى بلاد الجزيرة والشام عن طريق الموصل ، وأخضع ماصادفه فى طريقه من قلاع ، كانت لا تزال تحت سيطرة الروم ، مثل الرها ، فلما اقترب من حلب أخلاها تتش ورحل إلى دمشق ، فدخل ملكشاه المدينة ، وطمأن أهلها ، ثم رحل منها إلى بغداد ، وأقر حكم تتش على بلاد الشام ، كما أقر حكم أبناء سليمان بن قتلمش على بلاد الروم .

وأقام ملكشاه بعض الوقت فى بغداد ، وزفت ابنته من تركان خاتون إلى الخليفة العباسى المقتدى بأمر الله فى أوائل عام ٤٨٠ هـ (١٠٨٧) فازداد

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٧٩ هـ ، ج ٨ ، ص ١٤٠ — ١٤١ .

نفوذ السلاجقة استقرارا فى جميع المناطق التى تحت أيديهم ، وأصبحت قوتهم أكبر قوة فى الشرق الإسلامى فى ذلك الوقت ، ولم يبق أمام ملكشاه إلا أن يخضع إقليم ماوراء النهر ، حتى يثأر لوالده الذى قتل فى هذه الديار قبل ذلك ، وقد واتته الفرصة فى عام ٤٨٢ هـ (١٠٨٩) ، حينما شكا له علماء ما وراء النهر من ظلم أميرها أحمد خان ، فقد كان صبيا ظالما قبيح السيرة فنفر الناس منه ، وكتبوا إلى السلطان سراً يستغيثون به ، ويسألونه القدوم عليهم ، ليملك بلادهم(١) .

وكانت لهذا الأمر دلالة بالغة ، هى أن المسلمين فى تلك البقاع كانوا ينظرون إلى السلاجقة على أنهم حماة الإسلام والمسلمين ، ولم يضع ملكشاه الفرصة ، فغادر إصفهان يرافقه وزيره نظام الملك ، وتوجه إلى خراسان حيث أعد جيشاً كبيراً ، ثم عبر نهر جيحون ، وهاجم بلاد ماوراء النهر ، وفتح بخارى وسمرقند ، وهزم أحمد خان وقبض عليه ، وأخذه أسيراً ، وهكذا بسط ملكشاه نفوذ السلاجقة على هذا الإقليم) ثم لم يلبث أن خضع له والى كاشغر ، فامتد نفوذ السلاجقة شرقا كما امتد غربا (٢) ، فشمل المناطق الواقعة بين كاشغر فى الشرق وأنطاكية فى الغرب ، أى امتد من حدود الهند شرقا إلى البحر الأبيض المتوسط غربا ، وانضوت تحت لوائه أقاليم ماوراء النهر وإيران وآسية الصغرى والعراق والشام .

وقد استغل نظام الملك اتساع نفوذ السلاجقة ، فأراد أن يشعر السلطان ملكشاه به من ناحية ، وأن يظهر للعالم المسيحى مدى هذا الاتساع من ناحية أخرى ، فأمر أن يرسل امبراطور الروم الجزية المفروضة على بلاده منذ موقعة ملازكرد إلى كاشغر بدلا من إصفهان ، وأن يرسل الملاحون الذين يعملون فى

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٢ هـ ، ج ٨ ص ١٤٨ — ١٥٠ .

(٢) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٢٨ — ١٣٠ ، وابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٨٢ هـ

نهر جيحون الرسوم المقررة عليهم إلى أنطاكية ، حتى يظهر مدى اتساع ملك السلاجقة [١] .

وقد رجع ملكشاه إلى خراسان بعد فتح ماوراء النهر ، ولكنه لم يلبث أن سمع أن قبائل الأتراك التى تقيم بالقرب من سمرقند قد أخذت تتمرد ، وتعصى من جديد، بحجة أن مرتباتها لم تصل إليها ، كما علم أن فرغانه ، وزعماء بعض القبائل المتمردة الأخرى قد انضموا إليها، فلم يلبث ملكشاه أن استعان بحكمة وزيره نظام الملك ، ونفوذ زوجته تركان خاتون فى إخماد الفتنة فى سهولة ويسر ، فرجع الجميع إلى طاعته ، وعاد إلى إصفهان بعد أن اطمأن إلى استقرار الحالة فى جميع أنحاء دولته المترامية الأطراف ، غير أن الأحداث لم تلبث أن تطورت تطوراً آخر ، فقد أطلت قوة جديدة رهيبة برأسها فى عام ٤٨٣ ﻫ (١٠٩٠ م)،ولم تلبث أن ظهرت على المسرح فى إيران ، وأخذت تمثل دوراً قوياً موجهاً فى تاريخ الدولة السلجوقية ، كانت له آثار واضحة فيما بعد . ونقصد بها قوة طائفة الاسماعيلية .

. . .

ظهور الاسماعيلية فى إيران :

والاسماعيلية ينتسبون الى اسماعيل بن جعفر الصادق ، وكانوا يعتقدون أنه أحق بالإمامة من أخيه [٢] موسى الكاظم ، وهم من شيعة آل على ، الذين يعتقدون فى سبعة أئمة آخرهم اسماعيل ، وأن اسماعيل هذا قد اختفى ، وسوف

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٢٨ ، وابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٢ ﻫ .

(٢) النوبختى : فرق الشيعة ، ص ٥٧ — ٥٨ .

يظهر فى الوقت المناسب لإصلاح الدنيا ، وهم يسمون السبعية ، لاعتقادهم فى سبعة أئمة .

ومن أهم مبادىء الاسماعيلية إيمانهم بالإمامة ، لأن العقل البشرى وحده يقصر عن الوصول إلى معرفة الله معرفة حقة ، فيجب على الناس أن يختاروا إماماً يقوم بإرشادهم وتعليمهم ، فهو كالمعلم يرشدهم عن طريق التعليم إلى معرفة الله ، ولهذا السبب يسمون — أيضاً — التعليمية (١) .

ومن أهم الأسس التى يقوم عليها مذهبهم إيمانهم بأن للعقيدة ظاهراً وباطناً ، وأن الشخص الذى يدرك كنه الباطن ويقبله لا يستحق العقاب ، وقد أدى هذا إلى تأويل أحكام الشريعة فجعلوا لكل نوع من أنواع العبادة باطناً . وكان هذا سبباً فى جعل الناس يسمونهم « الباطنية (٢) » .

وقد انتشر دعاة الاسماعيلية فى جميع الأقطار الإسلامية للترويج لدعوتهم ، وأخذوا يدعون الناس سراً وجهراً إلى اتباع مذهبهم ، فتمكنوا من إقناع بعض الأمراء والقبائل والأفراد باتباع مذهبهم حتى تمكنوا من تأسيس عدة دول : منها دولة القرامطة فى عام ٢٨٧ هـ (٨٩١ م) ، وقد تمكن القرامطة من الاستيلاء على كثير من مدن الشام والعراق وعمان والبحرين ، كما استولوا على مكة ، وظلوا مدة يشيعون الرعب والقتل بين المسلمين فى تلك النواحى .

---

(١) إقبال : تاريخ إيران ، ١٦٤ هـ .

(٢) حاول الشيعة بعامة أن يفسروا قول الله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب » . سورة آل عمران آية ٧ — تفسيراً يتفق مع وجهة نظرهم ، وهى أن الراسخين فى العلم يعلمون المعنى الباطن .

كما ارتفع شأن طائفة منهم فى شمالى إفريقية حتى كونوا — عام ٢٩٦هـ (٩٠٨ م) — دولة فى تونس هى الدولة الفاطمية تمييزاً لأنفسهم عن العلويين فى إيران ، وقد قوى نفوذ الفاطميين حتى شمل مصر وجزءا كبيرا من بلاد الشام ، وبلاد العرب ، كما قرئت الخطبة باسمهم مدة عام فى بغداد فى أثناء غلبة البساسيرى كما ذكرنا .

أما إيران فقد انتشر نفوذ الاسماعيلية فى بعض أجزائها ، فازداد نفوذهم فى العصر السامانى فى عهد نصر بن أحمد ، وفى أثناء حكم الديالمة من آل زيار ، ولكن هذا النفوذ لم يلبث أن ضعف بعد غلبة الغزنويين وتلاشى تقريباً فى بداية العهد السلجوقى لأن السلاجقة كانوا من أهل السنة ، فكانوا يتعقبون الاسماعيلية .

غير أن النفوذ الاسماعيلى عاود الظهور فى عصر ملكشاه ، وأصبح قوياً مرعباً على يد حسن الصباح الذى كان من أنصار المذهب النزارى أحد أفرع المذهب الإسماعيلى .

وينتسب المذهب النزارى إلى نزار بن المستنصر بالله الفاطمى (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ ، ١٠٣٥ — ١٠٩٤ م) ، ففى أواخر عهد المستنصر هذا حدث نزاع حول ولاية العهد بين ابنيه نزار والمستعلى ، فانقسم الاسماعيلية بينهما ، غير أن نزارا لم يستطع الوصول إلى الخلافة بعد موت أبيه ، فقد هزم ، ووقع أسيرا فى يد أخيه ، ثم توفى فى الأسر ، وإن كان أتباعه قد انتشروا فى أواخر عهد المستنصر ، وأخذوا يدعون الناس لاتباع المذهب النزارى[1] . وكان من بين الذين اعتنقوا هذا المذهب ، وتعصبوا له شخص يدعى حسن الصباح .

---

(١) إقبال : تاريخ إيران ، ص ١٦٤ — ١٦٥ .

وقد رحل الصباح — فى عام ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) — من الرى إلى إصفهان ، ثم أخذ يطوف بالبلاد فزار آذربيجان وبلاد الشام ، وزار مصر فى عام ٤٧١ هـ (١٠٧٨ م) ، وأقام فيها عاما ونصف عام ، وانضم فى أثناء إقامته فى مصر إلى أنصار نزار ، ثم ترك مصر فى عام ٤٧٣ هـ (١٠٨٠ م) ، ورحل إلى إيران ، وأخذ يدعو للمذهب الاسماعيلى النزارى .

فالتف حوله الكثيرون ، وأخذت قوته تتضاعف حتى عظمت شوكته ، فكون قوة استطاع أن يستولى بها على قلعة الموت [١] (٤٨٣ هـ / ١٠٩٧ م) ثم اتخذ هذه القلعة الحصينة مقرا لدعوته أو لدولته الفتية ، وكثر مريدوه ، واستطاعوا تكوين معاقل كثيرة حصينة يتحصنون فيها وفى أماكن جبلية فى شمالى إيران وشرقيها ، فى المنطقة الممتدة من حدود آذربيجان إلى كرمان خصوصاً فى ديلم وقومس وقهستان ، وكانت هذه المعاقل منيعة مرتفعة يصعب الوصول اليها .

وكان جيش الاسماعيلية يمتاز بالحماسة والاستعداد للتضحية بالنفس فى سبيل حماية الدعوة ، فكثر بينهم الفدائيون الذين استعانوا بهم فى نشر دعوتهم واغتيال أعدائهم من القواد والأمراء والخلفاء والسلاطين الذين كانوا يقفون حجر عثرة فى طريقهم ، مما أثار قلقاً شديداً فى جميع أنحاء الدولة السلجوقية ، فعاش الناس فى خوف واضطراب ، يتوجسون خيفة من فدائيى الاسماعيلية .

. . .

---

(١) كلمة ديلمية معناها « المكان الذى أرشد عليه العقاب » ارجع الى تاريخ إيران لإقبال حفظية ص ١٦٥ .

مصرع نظام الملك :

ولعل أبرز عمل ينسب إلى الاسماعيلية فى عهد ملكشاه قتلهم لوزيره المشهور نظام الملك ، فى اليوم العاشر من شهر رمضان من عام ٤٨٥ ﻫ (١٠٩٢ م) [١] .

والواقع أن مكانة نظام الملك كانت قد تزعزعت فى أيامه الأخيرة لأسباب أهمها :

أولا : سيطرة أهله وأتباعه على مرافق الدولة المختلفة ، واستبدادهم وتحكمهم ، وتصرفهم فى الأمور وفقاً لإرادتهم ، وسوء استغلالهم لنفوذ نظام الملك ، الذى كان فى ذلك الوقت شيخاً كبيراً محطماً [٢] ، لا يستطيع القيام بجميع أعباء الدولة ومهامها الجسام ، مما اضطره إلى الاستعانة بأبنائه العديدين ، وأقاربه وأتباعه فى إدارة [٣] أقاليم الدولة السلجوقية المترامية الأطراف ، وقد استعان هؤلاء بنفوذ نظام الملك ، وقوة شخصيته ، وسوابق خدمته ، فطغوا وابتعدوا عن جادة العدل والصواب ، مما جعل السلطان ملكشاه ينفر من نظام الملك ، ويحاول التخلص منه ، وأتاح هذا لمنافسى نظام الملك وحساده ، فرصة الدس بينه وبين السلطان ، حتى يزيدوا نيران الخلاف بينهما اشتعالا .

ثانياً : الخلاف بين نظام الملك وتركان خاتون زوجة السلطان حول ولاية العهد ، فقد كان نظام الملك يحب أن يلى العرش بركياروق الابن الأكبر لملكشاه ، بينما كانت تركان خاتون تريد أن يليه ابنها محمود [٤] الذى كان

---

(١) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٦٣ .
(٢) ولد نظام الملك فى عام ٤٠٨ ﻫ أى أنه كان حينذاك فى السابعة والسبعين من عمره .
(٣) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٣٢ .

فى ذلك الوقت طفلا لا يكاد يتجاوز الرابعة من عمره ، الأمر الذى جعل تركان خاتون تكره نظام الملك وتنضم الى أعدائه .

وكانت تركان خاتون ذات نفوذ كبير فى ذلك الوقت ، لأنها كانت تسيطر وتتدخل فى السياسة ، وفى تصريف شئون الدولة . فتمكنت من التأثير على السلطان حتى ساء ظنه بنظام الملك ، وفكر فى عزله .

ثالثاً : شكوى والى مرو من قبل السلطان ملكشاه من عثمان بن جمال الملك ابن نظام الملك الذى كان جده قد ولاه رئاسة مرو ، فثار نزاع بينه وبين قودن الوالى المعين من قبل السلطان ، فلم يلبث أن استغل عثمان نفوذ جده نظام الملك ، فقبض على قودن وأودعه السجن ، ثم أطلق سراحه فقصد السلطان مستغيثا شاكيا (١) ، وكان السلطان قد أبغض نظام الملك ، وأحب القضاء على نفوذه ونفوذ أبنائه وأتباعه ، فكان هذا السبب الأخير بمثابة طلقة التنفيذ ، فهم السلطان بخلع وزيره نظام الملك ، غير أنه لم يلبث أن خشى أن يقدم على هذا الأمر ، فتنتشر الفوضى والاضطرابات فى جميع أنحاء الدولة ، نظراً لكثرة أتباع نظام الملك ، ولأن جزءا كبيرا من رجال الجيش كانوا يحبونه ويؤيدونه ، ويحمونه هو وأولاده وأتباعه ، فآثر السلطان أن يلجأ إلى التهديد بالعزل بدلا من العزل نفسه ، فلعل التهديد يرهب نظام الملك فيخفف من سيطرة أتباعه ، فاتخذ من شكوى والى مرو سبباً فى إرسال خطاب شديد اللهجة إلى نظام الملك ، وكان ذلك فى عام ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) ، وأراد أن يمعن فى إغاظة الوزير وإغضابه ، فأرسل الخطاب مع جماعة من أرباب دولته منهم شخصان من ألد أعدائه هما تاج الملك الشيرازى ومجد الملك القمى ، وقد وجه ملكشاه فى هذا الخطاب الكلام إلى وزيره قائلا : « إن كنت شريكى فى الملك ، ويدك مع يدى فى السلطنة ، فلذلك حكم ، وان كنت نائبى وبحكمى فيجب ان تلزم حد

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٥ هـ .

التبعية والنيابة ، وهؤلاء أولادك قد استولى كل واحد منهم على كورة عظيمة وولى ولاية كبيرة ، ولم يقنعهم ذلك ، حتى تجاوزوا أمر السياسة ، وطمعوا إلى فعل كذا وكذا وكذا . . » وأطال القول(١) .

فلما وصلت الرسالة إلى نظام الملك تميز غيظاً ، ورد عليها رداً جافاً ، فقال لمن حملوها : « قولوا للسلطان إن كنت ما علمت أني شريكك في الملك فاعلم ، فإنك ما نلت هذا الأمر إلا بتدبيري ورأيي ، أما يذكر حينما قتل أبوه فقمت بتدبير أمره ، وقمعت الخوارج عليه من أهله وغيرهم منهم فلان وفلان — وذكر جماعة ممن خرج عليه — وهو ذلك الوقت يتمسك بي ويلزمني ، ولا يخالفني ، فلما قدت الأمور اليه ، وجمعت الكلمة عليه ، وفتحت له الأمصار القريبة والبعيدة ، وأطاعه القاصي والداني ، أقبل يتجنى لي الذنوب ، ويسمع في السعايات . قولوا له عني : إن ثبات هذه القلنسوة معذوق بهذه الدواة ، وان اتفاقهما رباط كل رغيبة ، وسبب كل غنيمة ، ومتى أطبقت هذه زالت تلك . فإن عزم على تغيير فليتزود للاحتياط قبل وقوعه ، وليأخذ الحذر من الحادث أمام طروقه » ثم قال لهم : « قولوا للسلطان عني مهما أردتم ، فقد أهمني ما لحقني من توبيخه ، وفت في عضدي(٢) » .

وأحيط السلطان علماً بجواب نظام الملك ، فأحفظه الجواب أكثر من ذي قبل ، ولكنه — رغم ذلك — لم يجرؤ على عزله ، فأخذ يتحين الفرص للقضاء عليه في صورة لا تؤدي الى قيام فتن وثورات . وأخذ يدبر مؤامرة للايقاع

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٥ هـ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٥ هـ . البنداري : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٦٢ .

به حتى تم قتله على يد واحد من فدائيي الاسماعيلية وهو فى طريقه الى بغداد فى رفقة السلطان ملكشاه ، فقد تقدم هذا الفدائى — وهو يرتدى ملابس الزهاد — نحو نظام الملك، وتظاهر بأنه يريد تقديم ملتمس للوزير . ثم طعنه بسكين كان يخفيها، فتوفى متأثرا بجراحه، وقيل إن هذا العمل كان بتحريض من تاج الشيرازى[١] وإنه دبر هذه المؤامرة للقضاء على نظام الملك . وإن السلطان ملكشاه كان ملما بأطراف المؤامرة . لأن زوجته تركان خاتون كانت وراء المؤامرة ، فهى التى حرضت وزيرها تاج الملك الشيرازى على تدبيرها للتخلص من نظام الملك ، بعد أن عارض فى تعيين ابنها الطفل محمود وليا للعهد .

كما قيل إن الشافعية هم الذين قتلوا نظام الملك ، لأنه أخذ جانب الحنفية لما حدث خلاف بينهم وبين الشافعية[٢] . مما جعلهم ينفرون من نظام الملك ، ويدبرون مؤامرة لقتله .

والمرجح أن الاسماعيلية هم الذين قتلوه ، وكانوا من الذكاء بحيث انتهزوا فرصة حدوث خلاف بينه وبين السلطان ملكشاه وزوجته تركان خاتون وتفكير أنصار السلطان وزوجته فى التخلص من نظام الملك ، فقتلوه وجعلوا الناس يظنون أن أنصار السلطان وزوجته هم الذين قتلوه ، وقد ظن أنصار نظام الملك أنفسهم أن قتل نظام الملك تم بتدبير من أنصار السلطان وزوجته ، ففكروا فى الأخذ بالثأر لسيدهم من السلطان نفسه ، وبذلك تحققت أهداف الاسماعيلية فى التخلص من أصحاب الجاه والسلطان من أهل السنة وفى مقدمتهم نظام الملك والسلطان ملكشاه ، فقد كان نظام الملك من حيث النفوذ أقوى

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٥ هـ .

(٢) سنعرض هذه المسألة بالتفصيل عند الحديث عن الحياة الدينية فى العصر السلجوقى .

شخصية فى المعسكر السنى ، وكان نفوذه أقوى من نفوذ السلطان السلجوقى والخليفة العباسى فى ذلك الوقت .

وقد اعترف الاسماعيلية بعد ذلك بعشرات السنين بقتلهم نظام الملك ضمن من قتلوا من أصحاب النفوذ الذين كانوا يقفون حجر عثرة فى طريق انتشار دعوتهم كما سيأتى .

موت ملكشاه :

توجه ملكشاه بعد موت نظام الملك إلى بغداد ، ثم عين تاج الملك الشيرازى وزيرا للدولة السلجوقية مع احتفاظه بمنصبه الأول باعتباره وزيرا لزوجة السلطان تركان خاتون ، غير أن السلطان ملكشاه لم يلبث أن توفى بعد وفاة نظام الملك بخمسة وثلاثين يوما[١] — أى فى منتصف شهر شوال من عام ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) — فانفرط عقد السلاجقة ، وتمزقت وحدتهم ، وضعفت قوتهم ، وصدق قول نظام الملك فى رده على رسالة السلطان ملكشاه من أن العرش مرتبط بوزارته ، فإذا زالت الوزارة عنه ، سقط السلطان من فوق العرش .

وكانت وفاة السلطان فى ظروف غامضة ، مما جعل الشائعات تنتشر حول سبب موته ، فقيل إن وفاته كانت طبيعية بانقضاء أجله ، وقيل إن زوجته تركان خاتون هى التى دبرت مؤامرة للتخلص منه ليخلو لها الجو مع وزيرها تاج الملك الشيرازى الذى كانت تحبه ، وهو قول غير صحيح لأن تركان خاتون كانت ذات تأثير على زوجها فكان لا يعصى لها أمرا ، وكان أصغر سنا من تاج الملك الشيرازى فلا يعقل أن تتخلص من زوجها السلطان الشاب

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٥ هـ .

لتتزوج بوزيرها الشيخ، ولعل الذى دفع إلى هذا الاتهام تدخل تركان خاتون فى الحكم وهو شىء غير مألوف من المرأة ، مما جعل خصومها يتهمونها فى أخلاقها لتشويه صورتها ، وقد اتهمت زوجة السلطان ملكشاه الثانية زبيدة خاتون بنفس التهمة مع وزيرها مجد الملك القمى لما ظهرت على المسرح السياسى لتوصيل ابنها بركيارق إلى العرش كما سيأتى .

كما قيل إن السلطان ملكشاه مات مسموماً بتدبير من أتباع نظام الملك الذين كانوا يظنون أن أتباع السلطان وزوجته هم الذين دبروا مؤامرة لقتل نظام الملك — كما ذكرنا — فأرادوا الأخذ بالثأر لسيدهم، ولم يجدوا شخصاً يعادل سيدهم إلا السلطان نفسه ، وهذا هو أرجح الأقوال .

ولم يعد الناس موت ملكشاه حدثاً جللا بعد وفاة الوزير نظام الملك الذى استطاع أن يكتسب حب الناس فى عصره ، وينشر العلم والرخاء فى ربوع الدولة السلجوقية المترامية الأطراف .

والواقع أن الدارس للدولة السلجوقية فى حاجة إلى أن يقف وقفة طويلة عند الدور الذى مثله نظام الملك على مسرح تاريخ هذه الدولة من النواحى السياسية والاجتماعية والثقافية .

أما من الناحية السياسية ، فقد كان نظام الملك طوال عهد ألب آرسلان وعهد ابنه ملكشاه يعد الأستاذ الأعظم والوزير الفذ الملهم ، فأمسك بيده زمام الأمور فى دولة السلاجقة المترامية الأطراف ، وأشرف بنفسه على رسم سياسة الدولة فى الداخل والخارج ، وحدد أهدافها ، ورسم الطرق التى توصل إلى هذه الأهداف ، واستطاع بسلامة تفكيره ، ودقة تدبيره وحسن

سياسته أن يجعل الأمور منتظمة فى جميع أنحاء الدولة ، وأن يخمد الفتن التى ثارت طوال مدة وزارته ، وأن يجعل السلاجقة أكبر قوة فى العالم الإسلامى ، ويكسبهم احترام المسلمين وتقديرهم ، ويبث رهبتهم فى نفوس غير المسلمين ، فخشيهم الروم وسائر حكام العالم المسيحى فى وقتهم ، ودفع قياصرة الروم الجزية للسلاجقة عن يد وهم صاغرون ، بعد هزيمة رومانوس ديوجينيس فى موقعة ملازكرد — كما ذكرنا — وأخذت الدول المسيحية تتجمع للقضاء عليهم فتوالت الحملات الصليبية بعد مصرع نظام الملك وبدأت سلسلة من الصراع المرير بين المسلمين وهؤلاء الصليبيين خرج المسلمون منها ظافرين — فى النهاية — على يد صلاح الدين .

وكان نظام الملك بعيد النظر ، وهو يرسم سياسة السلاجقة الخارجية ، فقد جعل أهم أهدافهم فتح البلاد الغير الإسلامية الواقعة فى شمال غربى إيران ، وفى آسية الصغرى ، وانتزاعها من أيدى الروم ، ليضفى على حروب السلاجقة صبغة الجهاد فى سبيل الله ، وكان دخوله بلاد الروم بعد موقعة ملازكرد أول معول هدّ فى كيان دولة الروم ، ويسر سقوطها بعد ذلك على أيدى الأتراك العثمانيين .

وقد ألف نظام الملك كتابا مشهورا ضمنه آراءه فى السياسة ونظم الحكم ، وسماه « سياستنامه » أى « كتاب السياسة » وهو من أهم الكتب التى تشرح نظم الحكم ، وكيفية إدارة البلاد ، وكسب رضا المحكومين ، وقبولهم سلطان الدولة عليهم دون تذمر أو ثورة .

والواقع أن ما تضمنه هذا الكتاب — من آراء ونظريات فى نظام الحكم —

يصلح أساسا لفن الحكم ، مما جعل الكتاب يحظى بشهرة واسعة وينقل من الفارسية إلى لغات مختلفة[١] .

وكانت سياسة نظام الملك في داخل الدولة — كسياسته في خارجها — تتسم بحسن التدبير ، وسلامة التفكير ، فكان يشجع على تعمير المدن وإصلاح البلاد وفعل الخير ، وتشييد المساجد والمدارس .

وقد شيد نظـــام الملك مدارس نسبت إليه ، فكانت تسمى « المدارس النظامية » .

وقد انتشرت المدارس التي أنشأها في المدن المهمة ؛ مثل بغداد وإصفهان ونيسابور وطوس وهراه وغيرها ، وكان من أشهرها المدرسة النظامية في بغداد كما خلف كثيراً من الأبنية والآثار العظيمة في مختلف الأمصار بعامة ، وفي بغداد وإصفهان بخاصة ، خلدت اسمه بعد وفاته .

وأقر نظام الملك الأمن والنظام في جميع أرجاء الدولة السلجوقية ، فانتعش المجتمع السلجوقي ، واتحد أفراده وتماسكوا ، واتجهوا جميعا إلى خدمة أهداف الدولة ، ونظروا إلى حروبها على أنها نوع من الجهاد في سبيل الله ، من أجل نشر دينه وإعـــلاء كلمته ، مما حفظ للسلاجقة وحدتهم وتماسكهم وقوتهم ، وجعلهم يذكرون بالخير ، وبأنهم جنود الإسلام المخلصون .

وقد ازدهرت الحياة الاجتماعية بفضل سياسة نظام الملك ، لأنه أوصى حكام الأقاليم بالعدل بين أفراد الرعية ، وعدم إرهاقهم بالضرائب والامتناع عن أخذها من المعسورين ، وفتح بابه لكل صاحب ملتمس ، حتى إنه دفع حياته ثمنا لهذا ، حينما دخل عليه القاتل في صورة صاحب ملتمس .

---

(١) كتب الدكتور السيد محمد العزاوى رسالة الماجستير عن نظام الملك وترجم كتابه « سياستنامه » إلى العربية .

وازدهرت الحياة الثقافية — أيضاً — طوال مدة وزارة نظام الملك، فقد كان هو نفسه عالما أديبا، فحرص على نشر العلم والثقافة، وأنشأ المدارس لتحقيق هذا الهدف، وشمل العلماء والكتاب والشعراء بكثير من رعايته وتشجيعه، فاجتمع حوله الكثيرون منهم، وألفوا كتبا، وقدموها له، ونظموا الأشعار في مدحه والإشادة بفضله، فساعد بذلك على ازدهار سوق العلم وازدهار الثقافة في ظل الدولة السلجوقية.

والواقع أن مكانة نظام الملك، وأثر سياسته في الدولة، قد ظهرا بوضوح بعد مصرعه، وخلو مكانه، فقد زلزلت دولة السلاجقة — بعده — زلزالا شديدا وانتكست انتكاسا عنيفا، وبدأت صفحة جديدة من تاريخها، فانتهى عصر التماسك والقوة، و[illegible] عصر التفكك والضعف ثم الانهيار، وإن كان نفوذ أسرته قد بقي قويا بعد مقتله، بسبب حب الشعب لها، والتفافه حول أفرادها، فتمتع كثير من أبنائه وأحفاده بشيء من النفوذ، ووصلوا إلى منصب الوزارة، في أثناء حكم أبناء ملكشاه وغيرهم من سلاطين السلاجقة، وكثيرا ما كان يكفي تأييد أسرة نظام الملك لفرد من أفراد البيت السلجوقي لانتصاره، لأن الشعب كان ينحاز إلى الجانب الذي تؤيده هذه الأسرة، كما كان يكفي تخلي هذه الأسرة عن حاكم من السلاجقة لتخلي الشعب عنه وانهزامه، كما سنرى.

. . .

أما السلطان ملكشاه، فإنه — أيضاً — من أعظم سلاطين الدولة السلجوقية، فقد وصلت الدولة في عهده إلى أقصى قوتها وعظمتها، وصارت تمتد من بحيرة خوارزم شمالا إلى حدود اليمن جنوبا، ومن حدود الصين شرقا إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط غربا، وكان اسمه يذكر في الخطبة وينقش على السكة في هذه الديار الشاسعة جميعها، كما كان أمراء الكرج والأبخاز وامبراطور الروم، يرسلون إليه الخراج، ويدفعون له الجزية.

وأصبحت مدينة إصفهان فى عهده من أهم بلاد العالم — فى ذلك الوقت — وأكثرها عمراناً ، فقد قام هو ووزيره نظام الملك ، وكبار رجال السلاجقة وأعيان الدولة ببناء كثير من الأبنية الفخمة فيها ، لا تزال آثار بعضها شاخصة إلى الوقت الحاضر .

ومن أشهر الأعمال التى تمت فى عهده ، التقويم المعروف باسم « تقويم جلالى »[1] نسبة إليه ، وقد تم وضع هذا التقويم فى مدينة إصفهان فى عام ٤٦٧ هـ (١٠٧٤ م) بتشجيع من نظام الملك ، واشترك فى وضعه وإصلاحه الشاعر المشهور أبو الفتح عمر بن إبراهيم الخيام النيسابورى .

وقد كان قتل نظام الملك وموت ملكشاه بعده بقليل ، واختفاؤهما من المسرح السياسى من أهم الأحداث التى وقعت فى تاريخ الدولة السلجوقية ، فقد انتهى باختفاء السلطان ووزيره عهد القوة والاتحاد ، وبدأ عهد جديد من الضعف والانقسام ، عهد أصبح الظفر فيه بمنصب السلطان غاية فى نفسه ، فكثر فيه النزاع بين أفراد البيت السلجوقى ، ولم تعد الدولة السلجوقية فيه تخضع لسلطان واحد ، بل صار يتنازعها أكثر من سلطان فى وقت واحد ، ويتقاسمها أمراء السلاجقة الذين لم يعد همهم نصرة الإسلام وتوسيع رقعة الدولة السلجوقية كما كان يفعل طغرل وألب آرسلان وملكشاه ، بل صار همهم محاولة القضاء على بعضهم البعض حتى يخلو الجو المنتصر منهم ، فأدت كثرة القتال بينهم إلى إسقاطهم جميعاً فى النهاية ، ولذلك يعد اختفاء ملكشاه ونظام الملك بداية لمرحلة جديدة فى تاريخ السلاجقة ، هى مرحلة التنازع والتمزق والضعف ثم الانهيار .

---

(١) يذكر ابن الأثير فى كتابه الكامل ، حوادث سنة ٤٦٧ هـ أن نظام الملك والسلطان ملكشاه جمعا جماعة من أعيان المنجمين ، فجعلوا النيروز أول نقطة من الحمل وكان النيروز قبل ذلك عند حلول الشمس نصف الحوت وصار ما فعله السلطان مبدأ التقاويم ، وتبدأ السنة بمقتضى هذا التقويم فى ٢١ مارس من كل عام غالبا ، وهو التقويم الشمسى المستعمل فى إيران فى الوقت الحاضر .

الفصل الخامس

تنازع السلاجقة وتمزق دولتهم

النزاع حول العرش :

كانت أولى المشاكل التي أطلت برأسها عقب موت ملكشاه مشكلة اختيار السلطان الذي يخلفه على العرش ، وقد برزت هذه المشكلة في أواخر عهده — كما مر — ، ومات السلطان ملكشاه وقتل وزيره نظام الملك ، قبله بمدة وجيزة ، دون الوصول إلى رأى حاسم فيها .

وكان التنافس على العرش ينحصر بين بركيارق الابن الأكبر لملكشاه يؤيده أتباع نظام الملك ، وبين أخيه الأصغر محمود ، وهو ابن تركان خاتون الزوجة المدللة ذات النفوذ ، يناصرها تاج الدين الشيرازي الوزير الذي احتل مكان نظام الملك .

وهكذا انقسم السلاجقة إلى معسكرين متنازعين يجاهر كل منهما الآخر بالعداء ؛ وكانت الظروف في صالح محمود أول الأمر ، لأن السلطان ملكشاه توفى فى بغداد مقر الخليفة العباسى الذى يرجع إلى رأيه فى تعيين السلطان ، وتطلب موافقته على توليته، بينما كان بركيارق إذ ذاك فى إصفهان ،فاستطاعت تركان خاتون بالاتفاق مع تاج الملك إخفاء نبأ وفاة ملكشاه حتى تتم البيعة لابنها محمود ، وطلبت من الأمراء وحكام الأطراف أن يبايعوه ، كما حاولت أن تقنع الخليفة المقتدى بالله العباسى بأحقية ابنها الطفل[1] ، ومازالت به حتى

(١) كان عمره فى ذلك الوقت أربع سنوات وبضعة أشهر .

اعترف به سلطانا بعد وفاة أبيه ، وخطب له فى ٢٢ شوال من عام ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) .

ثم أمرت بإيداع بركيارق السجن ، فسجنه أتباعها فى إصفهان ، وهكذا تم لتركان خاتون ما أرادت ، وخيل إليها أنها أصبحت فى مأمن من كل مناوأة ؛ وفى منجى من كل عداء[1] .

ولكن أتباع نظام الملك ، ورجال المدرسة النظامية وطلابها فى إصفهان كانوا لها بالمرصاد ، فما كادوا يعلمون بما حدث حتى أعلنوها ثورة عاتية ، وهاجموا سجن إصفهان ، وأخرجوا بركيارق منه ، وأجلسوه على عرش السلطنة فى إصفهان . وبهذا وجد سلطانان فى وقت واحد : محمود فى بغداد ، وبركيارق فى إصفهان . وأصبح لامفر من الاحتكاك بين المعسكرين .

وكانت تركان خاتون هى البادئة بالهجوم ، فسارت مع الجيش ومعها ابنها السلطان محمود والوزير تاج الملك الشيرازى وهاجمت مدينة إصفهان حيث يوجد بركيارق ومؤيدوه من النظامية ، وتمكن جيشها من الاستيلاء على إصفهان ، بينما فر بركيارق وأنصاره صوب الجنود .

ولم تهدأ تركان خاتون بل صممت على مطاردة أعدائها ولكن النظامية نظموا صفوفهم ، والتف الناس حولهم ، واستطاعوا أن يوقعوا بجيش تركان خاتون بالقرب من بروجرد ، وقبضوا على الوزير تاج الملك الشيرازى ، وقتلوه شر قتلة ، انتقاما لمصرع نظام الملك قبل ذلك ببضعة أشهر .

ولاذت تركان خاتون بعد هزيمتها بالفرار ، وعادت إلى اصفهان وتحصنت

---

(١) ارجع فى تفصيل ذلك إلى ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٥ هـ .

فيها ، ورجحت كفة بركيارق بمساعدة أنصار نظام الملك ، فتقدم لحصار إصفهان ، ثم آثر أن يترك حصارها وأن يتحين فرصة مناسبة للاستيلاء عليها بسهولة ، فأقلع عن حصارها ، وتوجه إلى همذان .

واتخذ بركيارق عز الملك الحسين بن نظام الملك وزيراً له ، وكان مقيما فى إصفهان عند وقوع هذه الأحداث[1] .

ولم يقتصر النزاع حول عرش السلطنة على محمود وبركيارق بل ظهر مطالب آخر بهذا العرش ، هو تاج الدولة تتش عم بركيارق ، الذى كان واليا على دمشق وماجاورها من بلاد الشام من قبل أخيه ملكشاه ، فلما بلغه نبأ موت أخيه ، رأى أنه أحق بالعرش من بعده ، لأن أبناء أخيه صغار ، لايزيد أكبرهم بركيارق على الثانية عشرة من عمره ، فسار تتش إلى حلب ، وبسط سلطانه عليها ، ثم سيطر على أنطاكية والرها وحران والرحبة ونصيبين ، ثم تمكن بعد مدة وجيزة من فتح الموصل وديار بكر وآذربيجان ، فازدادت قوته ، واتسع نفوذه ، وأخذ يفكر فى التوجه إلى بغداد ، للاتصال بالخليفة العباسى لإقناعه بالاعتراف به سلطانا على السلاجقة ، وإصدار أمر بتعيينه بدلا من محمود ، الذى كان الخليفة قد أصدر أمراً بتعيينه بعد وفاة والده ملكشاه .

وأحس بركيارق — الذى كانت كفته قد رجحت كفة أخيه محمود — بالخطر الذى يتهدده من ناحية عمه تتش ، وكان بركيارق حينذاك قد بسط سلطانه على كثير من بلاد إيران ؛ بعد أن استولى على المنطقة الواقعة بين همذان والرى ، فتوجه إلى آذربيجان لدفع خطر عمه تتش ، فلما تقارب الجيشان انضم عدد من أمراء جيش تتش إلى بركيارق الذى تناصره أسرة نظام الملك فأيقن

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٥ هـ وحوادث سنة ٤٨٦ هـ .

تتش أن الدائرة ستدور عليه ، فآثر أن يرجع إلى بلاد الشام ، واستقامت الأمور لبركيارق في عام ٤٨٦ هـ .

ولم يلبث بركيارق أن واجه فتنة أخرى ، قام بها خاله اسماعيل بن ياقوتى الذى كان أميرا على آذربيجان ، فقد تحرك اسماعيل بجيش لمناصرة تركان خاتون وابنها محمود ؛ بعد أن أرسلت إليـــه تركان خاتون تمنيه بالزواج[1] إذا ناصرها ، وتحرضه على قتال بركيارق ابن أخته ، فأجابها اسماعيل إلى ماطلبت ، وجمع جيشاً وافر العدد من التركمان واشتبك فى قتال مع جيش بركيارق ولـكنه هزم ، فآثر اسماعيل الفرار إلى إصفهان ، والالتجاء إلى تركان خاتون التى أكرمت وفادته ، وأمرت بأن يذكر اسمه فى الخطبة على منابر إصفهان ، وبأن ينقش اسمه على الدينار بعد اسم ابنها محمود ، وكادت تتزوجه لولا غيرة أمراء الجيش منه ، وتدبيرهم ضده ، ففقد اسماعيل الطمأنينة فى إصفهان ، وفضل أن يتركها ، وأن يلجأ إلى أخته زبيدة خاتون أم بركيارق لعله يجد عندها الحماية والطمأنينة ؛ غير أن أنصار بركيارق من النظامية اغتالوه ، فانتهى أمره[2] ، وأسدل الستار على دوره .

وهكذا سارت الأمور لصالح بركيارق الابن الأكبر لملكشاه ، لأن أسرة نظام الملك وأنصارها فى أنحاء الدولة المختلفة ، كانوا يناصرونه ، ويشدون أزره ، وصار واضحا أنه سيقضى على منافسيه ، ويصبح سلطانا على السلاجقة دون منازع ، ويظفر باعتراف الخليفة العباسى ، ولم يتردد بركيارق فى التوجه إلى بغداد ، ومعه وزيره عز الملك الحسين بن نظام الملك ، حيث اتصل بالخليفة العباسى المقتدى لأمر الله ، ولما أيقن الخليفة أن كفة بركيارق

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٤١ — ١٤٢ .

(٢) ابن الأثير : الـكامل ، حوادث سنة ٤٨٦ هـ .

هى الأرجح اعترف به سلطانا على السلاجقة وأمر بقراءة الخطبة باسمه فى ١٤ من المحرم من سنة ٤٨٧ هـ (١٩٠٤ م) ، ومنحه لقب ركن الدين ، ثم توفى الخليفة فى اليوم التالى ، فخلفه ابنه المستظهر بالله الذى لم يلبث أن اعترف هو — أيضاً — ببركيارق .

وكان عمه تتش منذ عودته من آذربيجان جاداً فى جمع الجند ليعاود المطالبة بعرش السلطنة ، فلما علم بما تحقق لبركيارق من تأييد الخليفة العباسى هاجم مدينة حلب ، وقتل الأمراء الموالين لبركيارق . ثم تمكن فى خلال مدة وجيزة من فتح حلب وديار بكر وآذربيجان وهمذان[١]. ثم لاحظ أن الناس يميلون إلى أسرة نظام الملك . ووجد فخر الملك الابن الأكبر لنظام الملك فى همذان أثناء استيلائه عليها . ففكر فى وسيلة لكسب رضا الناس عنه فأسند الوزارة إلى فخر الملك هذا . وبذلك قوى نفوذ تتش وأصبح أكبر خطر يهدد بركيارق ، الذى ساعده الحظ بموت زوج أبيه تركان خاتون ثم أخيه محمود وانحياز أنصاره إلى بركيارق واعترافهم به سلطانا، ثم لم يلبث أن انضم إليه مؤيد الملك ابن نظام الملك ، فأسند إليـــه الوزارة فى ذى الحجة من العام نفسه[٢]. وكان مؤيد الملك هذا أكفأ أبناء نظام الملك . فاستطاع أن يعيد الاستقرار إلى دولة السلاجقة ، وكاتب الأمراء العراقيين والخراسانيين واستمالهم . فانضموا جميعاً إلى بركيارق فعظم شأنه، وكثر جنده ، حتى استطاع الانتصار على عمه تتش فى معركة بالقرب من الرى فى صفر من عام ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) انتهت بمصرع تتش[١]. فتخلص بركيارق من شره نهائيا .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٧ هـ .

(٢) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٤٢ — ١٤٣ .

(٣) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٨٥ ؛ ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٨ هـ .

واستقامت السلطنة له . وبذلك انتهى النزاع حول العرش بعد أن ظل سنتين وبضعة أشهر . ولكن آثاره لم تنته ، فقد ذهبت وحدة السلاجقة وتماسكهم وأصبحوا شيعا وأحزابا ومعسكرات متباينة تتصارع فيما بينها . وهكذا ترك السلاجقة التطلع إلى العالم الخارجي، ومحاولة بسط نفوذهم على أقاليم جديدة وصار بأسهم بينهم شديدا . فبدأوا يتناحرون ، وأصبح الظفر بالعرش هدفا فى ذاته وقلدهم وزراؤهم ، وقوادهم فتنافسوا وتناحروا للظفر بالوزارة أو القيادة ،فأخذت الدولة السلجوقية تضعف منذ ذلك الحين .وأخذ نجمها يقل تلألؤا وبريقا حتى أفل فى النهاية .

* * *

التنازع على الوزارة :

لم تكد مشكلة الأحقية بعرش السلطنة تهدأ بعد انتصار بركيارق ،حتى أطلت مشكلة الأحقية بالوزارة برأسها، وأخذت تهدد دولة السلاجقة بانقسامات ومنازعات جديدة ، فلم يكد بركيارق يفرغ من القتال ،حتى بدأ التنافس بين فخر الملك وأخيه مؤيد الملك على كرسى الوزارة ؛ فقد كان فخر الملك الابن الأكبر لنظام الملك ، وكان يحاول كثيرا أن يحتل مكانة أبيـــه، فلم يزل يسعى للوصول إلى هدفه ، ويتصل بالسلطان حتى تقرب منه ، فعزل مؤيد الملك وأسند الوزارة إلى أخيه فخر الملك فى عام ٤٨٨ هـ نفسه[١]. وكان مجد الملك، القمى وزير زبيده خاتون أم السلطان يؤيد فخر الملك ،ويتخذه ستارا يختفى وراءه ، ويمسك بأزمة الأمور فى يده إلى أن تواتيه الفرصة ،فيظهر على المسرح ويتولى الوزارة وهكذا كانت سلطة فخر الملك اسمية ؛ بينما كانت

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٤٣ ، ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٨ هـ .

السلطة الفعلية فى يد مجد الملك ، الذى كان وزيرا لديوان الاستيفاء ، كما كان وزيرا لزبيده خاتون أم السلطان ، فاستطاع أن يبسط نفوذه على كل مرافق الدولة ، وأن يتصرف فى جميع مهامها ، واستحالت وزارة فخر الملك إلى دمية فى يد مجد الملك ، وصارت جسما لا ينبض بالحياة .

أما مؤيد الملك فإنه لم يفكر فى مناوأة أخيه فخر الملك ، ولم يحاول أن يستعيد الوزارة من جديد ، بل فكر فى التآمر ضد السلطان نفسه ، فأخذ يتصل بأعدائه ومنافسيه ، حتى استقر به المطاف عند محمد بن ملكشاه أخي بركيارق ، الذى كان واليا على إقليم آذربيجان من قبل أخيه ، فقربه محمد ، واتخذه وزيرا ليضمن تأييد أسرة نظام الملك له ثم بدأ يناوىء أخاه كما سيأتى .

وفى عام ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) توجه السلطان لإخماد فتنة فى خراسان ، ولكنها خمدت قبل وصوله ، فتوجه إلى مدينة بلخ .

وكان فخر الملك هو ومجد الملك مع السلطان فى بلخ ، فوجد السلطان أن الفرصة قد واتت لعزل فخر الملك بصفة نهائية ، فخلعه وعين مجد الملك القمى وزيرا بصفة رسمية [١] ، واضطر فخر الملك إلى الانزواء فى نيسابور ، ولكن انزواءه لم يطل ؛ فقد عينه سنجر — أخو بركيارق وحاكم خراسان من قبله — وزيرا له ، فظل فى الوزارة إلى أن قتله فدائيو الاسماعيلية ، فى العاشر من المحرم من عام ٥٠٠ هـ (١١٠٦ م) .

وهكذا انتصرت زبيدة خاتون ووزيرها مجد الملك القمى ، وأخذ مجد الملك يظهر فوق المسرح السياسى ، بعد أن كان يعمل من وراء حجاب ، وبدأت المؤامرات تدبر ضد السلطان ووزيره تحت إشراف مؤيد الملك ابن نظام الملك ، وكان إقدام بركيارق على عزل فخر الملك يعنى تخليه نهائيا عن

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٤٠ .

أسرة نظام الملك التي كانت تتمتع بحب الجزء الأعظم من رعايا السلاجقة ومن أمراء الجيش وكبار رجال الدولة، فبدأ الناس يتخلون عن بركيارق بعد أن كانوا يحمونه، واشتعلت نيران الثورة في جهات مختلفة من أجزاء الدولة السلجوقية المترامية الأطراف .

قيـام الفتن :

ووجدت دعايات مؤيد الملك ضد بركيارق ووزيره صدى في النفوس فاستجاب لها الأمير « أنر » وشق عصا الطاعة في إصفهان، وجمع جيشا قويا توجه به إلى الري، وأرسل إلى السلطان في خراسان، يطلب منه تسليم مجد الملك، فتوجه لقتاله، ولكن « أنر » قتل على أيدي فدائيي الاسماعلية[1] الذين كانوا قد نشطوا في إصفهان وما جاورها، وصاروا خطراً يهدد الدولة السلجوقية وكبار رجالها .

وقد استراح بركيارق ومجد الملك من فتنة أنر، ليواجهوا فتنة أعظم قوة وأشد خطراً، أطلت برأسها من آذربيجان، فإن مؤيد الملك ـ المحرك الأصلي لهذه الفتن جميعها — لما فشلت فتنة أنر أسرع بالتوجه إلى آذربيجان، حيث كان محمد بن ملكشاه أخو بركيارق واليا على أران وگنجه وكان هو وسنجر من أم واحدة، وأخذ مؤيد الملك يثير محمداً ضد أخيه بركيارق ووزيره مجد الملك رغبة في الانتقام منهما، فاستدعى محمد إليه وعينه وزيراً له، وبدأ يستعد لقتال أخيه .

وكان أول عمل قام به محمد هو قطع الخطبة لأخيه، فخطب لنفسه بالسلطنة ثم تحرك في عام ٤٩٢ هـ (١٠٩٨ م) على رأس جيش كبير قاصداً همذان والري يصحبه وزيره مؤيد الملك، وجمع بركيارق جيشاً وفير العدد وتوجه من الري

---

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

إلى زنجان لقمع هذه الفتنة، غير أن الفتنة لم تلبث أن انتشرت بين جنوده ، فقد كان أغلبهم يميل إلى أسرة نظام الملك ، ويكره مجد الملك القمى .

ولم يلبث جنود بركيارق أن طالبوه بقتل وزيره ، ولكنه لم يذعن لأمرهم، فلم يجد الجنود بدا من الهجوم على خيمة مجد الملك حيث قتلوه ومزقوه إربا[1] ، وحلت الهزيمة ببركيارق فولى هاربا إلى إصفهان ، غير أن الناس سدوا الطريق فى وجهه، فلم يسمحوا له بالتوجه إلى اصفهان ، فولى وجهه شطر خوزستان .

وسار محمد حتى دخل مدينة الرى، وكانت زبيدة خاتون أم بركيارق قد تخلفت فيها فقبض عليها مؤيد الملك وأمر بقتلها[2] ، ثم توجه إلى همذان . وأعلن نفسه سلطانا على الدولة السلجوقية .

وأحس الخليفة العباسى بقوة محمد ، وغلبة نفوذه، فاعترف به سلطانا على السلاجقة ، فخطب له ، ولقب بغياث الدنيا والدين .

وهكذا وجد سلطانان فى وقت واحد ، معترف بهما من الخليفة العباسى . وكان هذا كله بسبب الاختلاف على كرسى الوزارة ، وما تتمتع به أسرة نظام الملك من تأثير فى الشعب والجيش ، وطبيعى أن يؤدى هذا إلى القضاء على وحدة السلاجقة ، وذهاب ريحهم ، وانقسام الناس إلى فرق مختلفة ، وانشغال السلاجقة عن أهدافهم السامية إلى قتال بعضهم بعضاً .

وقد طال النزاع بين بركيـــارق وأخويه محمد وسنجر ، وتبادل الطرفان النصر والهزيمة .

وأما الخليفة العباسى فكان مسلوب السلطة مما أدى إلى تناقضه فى

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٤٥ — ١٤٦ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ ه .

تصرفاته ؛ فهو يؤيد كل من تصل يده إلى بغداد ويدعو له على المنابر[١] .

وقد أدت هذه الحروب المتطاولة إلى انتشار الفساد والاضطراب فى الدولة فصارت الأموال منهوبة والدماء مسفوكة ، والبلاد مخربة والقرى محرقة . والسلطنة مطموعاً فيها ، محكوما عليها ، وأصبح الملوك مقهورين بعد أن كانوا قاهرين ، وكان الأمراء الأكابر يؤثرون ذلك ويختارونه ليدوم تحكمهم .

وفى عام ٤٩٧ هـ (١١٠٣ م) سئم بركيارق كثرة الحروب ورأى ضعف السلاجقة وتفككهم فخاطب أخاه فى الصلح[٢] . واتفق الطرفان على أن يسرى تقسيم النفوذ . فتخضع المناطق الشمالية لمحمد ، ويسيطر بركيارق على الأقاليم الجنوبية ، وأن يحمل كل منهما لقب السلطنة ، بينما تظل خراسان وما جاورها تحت حكم سنجر . واستمر هذا الاتفاق قائما حتى توفى بركيارق فى الثانى من شهر ربيع الثانى من عام ٤٩٨ هـ (١١٠٤ م) وكان قد عين قبيل وفاته ابنه ملكشاه — الذى كان طفلا دون الخامسة — وليا لعهده . وعين الأمير إياز أتابكا عليه[١] .

• • •

وهكذا توفى بركيارق وهو شاب فى الخامسة والعشرين من عمره بعد حكم استمر اثنتى عشرة سنة وبضعة أشهر قضى أغلبها فى حروب متواصلة تبادل فيها النصر والهزيمة فى سبيل الاحتفاظ بعرش السلطنة .

والشىء الجدير بالملاحظة أن بركيارق ترك الدولة السلجوقية بعد أن تجزأت ، وصار كل جزء منها يتبع والياً يكاد يكون مستقلا فكانت

---

(١) ارجع فى شرح هذا إلى ابن الأثير : الكامل ، فى حوادث سنة ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ هـ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٧ هـ .

(٣) المرجع السابق ، حوادث سنة ٤٩٨ هـ .

الأجزاء الشرقية من الدولة تخضع لحكم سنجر ، بينما تخضع الأجزاء الشمالية لسيطرة أخيه محمد . وكانت بلاد الشام فى قبضة أبناء تتش وكانت آسية الصغرى تحت حكم أبناء سليمان بن قتلمش . وكانت كرمان تحت حكم أبناء قاورد ، وكان كل حاكم يسيطر سيطرة مطلقة على الأقاليم الخاضعة لنفوذه فتقسمت بذلك الدولة السلجوقية العظيمة ، فلم تعد ترى تلك الصورة الرائعة من الاتحاد والتماسك بين أجزاء الدولة السلجوقية المترامية الأطراف ، التى كانت واضحة المعالم فى عهود طغرل وألب آرسلان وملكشاه . ولم تتضح هذه الصورة إلا فى خلال جزء من عصر سنجر كما سيأتى .

والحقيقة أن الدولة السلجوقية أخذت منذ عهد بركياق تتجه نحو الضعف والتفكك والانهيار ، بعد أن كانت أعظم قوة فى العالم الإسلامى ، مما سوف نتبينه أثناء حديثنا عن خلفاء بركيارق حتى زوال هذه الدولة .

وكان تدخل المرأة فى الحكم وظهور على المسرح السياسى أول معول هد فى كيان الدولة السلجوقية ، وأول عامل من عوامل سقوطها .

• • •

فتنة الاسماعيلية :

لم يحتدم النزاع كثيراً حول العرش بعد وفاة بركيارق ، فقد حمل إياز السلطان ملكشاه بن بركيارق إلى بغداد وحصل من الخليفة العباسى على التفويض له بالسلطنة ، ولكن لم يستطع الاحتفاظ له بها طويلا ، فإن محمداً أسرع إلى بغداد ، وضم ابن أخيه إليه ، ومالأ « إياز » فى أول الأمر ، وبذلك أصبح محمد سلطانا دون منازع ، ولم يعترض شقيقه سنجر ثم انقلب محمد على إياز فتخلص منه بالقتل (١) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٩٨ ه .

ولكن الدولة السلجوقية لم تلبث أن ابتليت بفتنة عارمة أشعل الاسماعيلية نيرانها. فقد استفادوا مما أصاب دولة السلاجقة من تفكك وتنازع وانشغال بالحروب الداخلية فيما بينهم ، فزادوا من نشاطهم ، ووسعوا منطقة نفوذهم ، وأخذوا ينشرون دعوتهم حتى وصلت إلى إصفهان ، إحدى عواصم الدولة السلجوقية . كما انتهزوا فرصة الحروب بين محمد وبركيارق فحاولوا السيطرة على مناطق جديدة وبلغت جرأتهم درجة جعلتهم يخطفون الناس بحيل مختلفة ، ويحملونهم إلى منازل غير معروفة ، حيث يسجنونهم أو يقتلونهم .

وقد استطاع أحد قواد الاسماعيلية ، وكان يدعى أحمد بن عبد الملك ابن عطاش أن يستولى على قلعة « شاهدز » بالقرب من إصفهان فى عام ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) . وكانت « شاهدز » إحدى القلاع الحصينة التى بناها السلطان ملكشاه ، مما جعل سيطرة اسماعيلية عليها من الأحداث الخطيرة التى تهدد الدولة السلجوقية ، فقد جمع أحمد بن عبد الملك الأسلحة والأمتعة والغلمان وتحصن داخل القلعة ، ثم بنى بجوار المدينة أيضاً داراً للدعوة ، وأخذ يدعو الناس لاتباع المذهب الاسماعيلى ، فاستجاب لدعوته عدد كبير .

وقد أمعن الاسماعيلية فى قتل مخالفيهم ، ووكلوا إلى رجل منهم يدعى علوى المدنى مهمة جلاد المخالفين ، فكان يقوم بخطفهم وإعدامهم فى منزل أعده لهذا الغرض بالقرب من إصفهان ،[1] حتى تنبه الناس إليه ، وعرفوا المنزل الذى خصصه لذلك ، فقبضوا عليه وأحرقوه هو وزوجته .

فلما اعتلى محمد عرش السلاجقة وجد أن قوة الاسماعيلية قد بلغت الذروة ووصلت إلى حد الخطورة ، وأيقن أن القضاء عليهم يتبغى أن يكون أهم عمل يقوم به ، فأمر بمحاصرة القلعة فى عام ٥٠٠ هـ (١١٠٦ م) ، كما أمر بقتل

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٥٥ — ١٥٧ .

وزيره سعد الملك الآبى لما أحس بأنه متواطىء مع الاسماعيلية يتصل بهم فى الخفاء ، وأسند الوزارة إلى أحد أبناء نظام الملك ، وكان يدعى ضياء الملك أحمد ، ويلقب بنظام الملك الثانى ، وعكف السلاجقة على حصار القلعة حتى سلم أحمد بن عبد الملك فى النهاية فى العام نفسه . فأمر محمد بقتله هو وأبنائه وبتخريب قلعة شاهدز ، ثم أخذ يتعقب الاسماعيلية [١] .

وكان تعقبه الاسماعيلية سببا فى ذكره بالخير فى الكتب المعادية لهم فوصف بأنه كان ذا غيرة دينية، وحب للجهاد فى سبيل إعلاء كلمة السنة ولذلك جد فى القضاء على الاسماعيلية ، وحاول الحد من نفوذهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وفكر فى الاستيلاء على قلعتهم الحصينة ألموت ، والقضاء على الحسن ابن الصباح نفسه فى المحرم من عام ٥٠٣ هـ (١١٠٩ م) .

ولكن الجيش الذى أرسله بقيادة وزيره نظام الملك أحمد بن نظام الملك إلى هذه القلعة عجز عن الاستيلاء عليها .

واشتد غضب الاسماعيلية فدبروا مؤامرة لاغتيال الوزير ، فضربوه بالسكاكين فى شهر شعبان من العام نفسه ، بينما كان فى طريقه إلى المسجد فجرح فى رقبته جرحا بليغاً ، وبقى مريضاً مدة ثم شفى [٢] .

وعظم خطر الاسماعيلية بعد عجز الجيش السلجوقى عن الاستيلاء على ألموت ، فأخذوا يغيرون على المناطق المجاورة ، ويكثرون من السلب والنهب والقتل ، وأسر الرجال وسبى النساء ، فاضطر السلطان محمد إلى ندب الأمير آنوشتكين شيرگير صاحب آبه وساوه وما جاورها ، فسار آنوشتكين لقتالهم

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ص ١٥٨ — ١٦٢ ؛ ابن الأثير الكامل ، حوادث سنة ٥٠٠ هـ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٣ هـ .

فى ٥٠٥ هـ (١١١١م) وتمكن من الاستيلاء على كثير من قلاعهم[١]، ثم توجه إلى قلعة ألموت، وعكف على حصارها وكان السلطان يواليه بالمدد من الميرة والذخائر والرجال، وقد شدد الحصار على الاسماعيلية حتى ضاق الأمر بهم، وعدمت عندهم الأقوات، وكاد الجيش السلجوقى يبلغ غايته ويصل إلى هدفه لولا موت السلطان محمد، فإنه جعل الاسماعيلية يأملون فى الفرج وانتهاء الحصار، كما أضعف عزائم الجند فمالوا إلى الرحيل، واضطر آنوشتكين إلى الجلاء فى النهاية، وترك مخلفات كثيرة غنمها الاسماعيلية[٢].

والواقع أن السلطان محمدا بذل جهداً مشكوراً فى فل شوكة الاسماعيلية والحد من سلطانهم، ووفق إلى حد كبير فى تصفية كثير من قلاعهم، وإخماد ما اشتعل من فتنتهم، والقضاء على موجة الإرهاب التى ارتفعت فى أثناء تنازع السلاجقة، وتطاحنهم للظفر بالعرش، غير أن وفاة السلطان محمد، وعودة التطاحن بين أفراد البيت السلجوقى حول تقسيم مناطق النفوذ كانتا من الأمور التى جعلت الاسماعيلية يستعيدون قوتهم، ويواصلون نشاطهم، فلم تخمد فتنتهم نهائياً، بل عادت تطل برأسها بين آونة وأخرى.

الحروب الصليبية :

ولم يقتصر الأمر على فتنة الاسماعيلية، بل ابتلى السلاجقة بعدو آخر أخذ يرابط على حدودهم الغربية، منذ أواخر القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ألا وهو الصليبيون، فقد أخذوا يغيرون على بلاد الشام وفلسطين فى أثناء عهد بركيارق، فى وقت كان السلاجقة فيه منقسمين على أنفسهم،

(١) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق، ص ١١٧.

(٢) الراوندى : راحة الصدور، ص ١٦٢، ابن الأثير الكامل، حوادث سنة ٥١١ هـ.

يتقاتلون فيما بينهم للظفر بعرش السلطنة ، فشغلتهم أهواؤهم الشخصية عن التنبه إلى الخطر الخارجى مما يسر للصليبيين النصر فى حروبهم الأولى .

وكان سلاجقة الشام لا يقلون انقساما وتنازعاً عن غيرهم من السلاجقة فى إيران والعراق ، فلم تكن لهم زعامة موحدة ، بعد مقتل « تتش » ، وذلك بسبب التنافس الذى ثار بين ابنيه رضوان ودقاق ، والتحاسد الذى أصاب قواده ، فأخذ كل واحد منهم يعمل فى سبيل أغراضه الخاصة . وقد اتخذ رضوان (٤٨٨ — ٥٠٧ هـ / ١٠٩٥ — ١١١٣ م) مدينة حلب عاصمة له ، بينما اختار أخوه دقاق (٤٨٨ — ٤٩٨ هـ / ١٠٩٥ — ١١٠٤ م) دمشق ؛ ودارت رحى الحروب بين الأخوين منذ عام ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) وشغلت جزءاً كبيراً من عهديهما[١] .

وقد يسرت هذه الحروب الداخلية السبيل أمام الصليبيين فهاجموا ديار المسلمين لانتزاع الأراضى المقدسة .

وإذا نظرنا إلى الحروب الصليبية فى وضعها الصحيح وجـدناها فصلا متوسطا بين فصول تلك القصة الطويلة التى تصف التفاعل بين الشرق والغرب مبتدئة بحروب طروادة وفارس فى الأزمنة الغابرة ومنتهية بالتوسع الاستعمارى الأوربى فى عصرنا الأخير .

وكان الباعث المباشر لهذه الحروب الاستنفار الذى أرسله امبراطور الروم الكسيوس كومنينوس — فى عام ٤٨٧ هـ/١٠٩٤ م — إلى البابا أربانوس الثانى عندما هاجم السلاجقة أملاك الروم فى آسية الصغرى واكتسحوها حتى بحر « مرمرة » وهددوا القسطنطينية نفسها ، ولعل البابا رأى فى ذلك الاستنجاد فرصة لإرجاع الكنيسة اليونانية إلى حظيرة روما ، فألقى البابا أربانوس خطبة

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، فى حوادث عام ٤٩٠ هـ .

فى كليرمونت — من أعمال فرنسا الجنوبية الشرقية — استحث المؤمنين فيها على سلوك الطريق إلى كنيسة القيامة وانتزاعها من أيدى المسلمين ، فتنادى الفرنجة بالحرب ، واستجاب إلى دعوة الباب إلى السلاح نحو خمسين ومائة ألف رجل أكثرهم من الفرنج والنورمنديين ، وقسم منهم من صعاليك الناس ، وتوافدوا إلى القسطنطينية ، فبدأت بذلك الحملة الصليبية الأولى ، وسميت صليبية إشارة إلى الصليب الذى حمله أعضاؤها علامة على صدورهم .

والواقع أن حمل شعار الصليب عند جمهور الناس فى فرنسا واللورين وإيطاليا وصقلية فى ذلك الوقت وخروجهم إلى الأرض المقدسة لم يكن تضحية من قبلهم بل كان تفريجا لكربتهم نظراً لحـــالة البؤس والأزمة الاقتصادية ، التى كانوا يعانونها .

وقد سلكت الحملة الصليبية الأولى ـ بعد احتشاد رجالها فى القسطنطينية ـ طريقها عبر آسية الصغرى . وكانت خاضعة إذ ذاك لقلج آرسلان سلطان سلاجقة الروم ، فاصطدم الصليبيون برجاله ، ثم حاصروا نيقية ، فسقطت فى أيديهم فى عام ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م)[١] ، ثم اشتبكوا مع المسلمين فى معركة فاصلة فى إسكى شهر ، حيث انتصروا على قوات قلج . فاسترد الروم بهذا الظفر الجزء الغربى من شبه جزيرة الأناضول .

واجتاز جيش الصليبيين — بعد ذلك — جبال طوروس ، واتجه جزء منه بقيادة بلدوين شرقا ، فاستولى على مدينة الرها فى عام ٤٩٢ هـ (١٠٩٨م) وهى مدينة يسكنها الأرمن ، وأسس بلدوين فى هذه المنطقة أول مستعمرة لاتينية وجلس أميراً على عرشها[٢] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، فى حوادث عام ٤٩١ هـ .

(٢) حتى وجرجى وجبور : تاريخ العرب ، ج ٣ ، ص ٧٥٣ — ٧٥٤ .

واحتل جزء آخر من جيش الصليبيين طرسوس ، بينما تابع الجيش الرئيسي سيره جنوبا حتى وصل إلى أنطاكية عاصمة سورية الشمالية ، وتمكن من انتزاعها من أيدي السلاجقة في عام ٤٩١ هـ (١٠٩٧ م)[١] ، فأسس بوهمند فيها الإمارة الثانية، وبقيت هذه المدينة في أيدي الصليبيين نحو خمس وسبعين ومائة سنة . وحاول كربوغا أمير الموصل أن ينقذ المدينة، ولكنه فشل وخسر عدداً كبيراً من جنده[٢] .

وكانت بلاد الشام منطقة نزاع بين الفاطميين والسلاجقة منذ وطئتها أقدام السلاجقة في عام ٤٦٣ هـ (١٠٧٠ م) .

وقد استطاع السلاجقة انتزاع فلسطين من الفاطميين ، ثم استولوا على دمشق واستقر نفوذهم في الشام - في عهد تتش بن ألب أرسلان — وبسطوا سيطرتهم على حلب والرها والموصل — كما مر — غير أن الفاطميين تمكنوا بفضل أسطولهم القوى من الاستيلاء على جميع مدن الساحل ومنها عسقلان وعكا وصور حتى جبيل شمالا في عام ٤٨٢ هـ (١٠٨٩ م) ، كما عادوا إلى القدس في عام ٤٨٩ هـ (١٠٩٦م) ، وظلوا فيها إلى أن سقطت في أيدي الصليبيين في عام (٤٩٢هـ — ١٠٩٨ م) وأدى هذا إلى اضطراب الحالة في بلاد الشام فقد كثرت المنازعات بين السلاجقة والفاطميين حول كثير من أجزائها ، ولم تكن للسلاجقة زعامة موحدة بعد مصرع تتش ، فزادت الحالة اضطرابا — كما ذكرنا — وكان السلاجقة على مذهب السنة، بينما كان الفاطميون على مذهب الشيعة ، فسعى كل من الطرفين إلى الإيقاع بالطرف الآخر ، فلم يقف الطرفان

---

(١) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٩١ هـ ؛ أبو الفداء : ج ٢ ، ص ٢٢٠ ؛ ابن خلدون ، ج ٥ ، ٢٠ ؛

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ ، أبو الفداء ، ج ٢ ص ٢٢١ .

معا صفاً واحداً لصد الخطر الصليبي الداهم، الذى أخذ يهدد نفوذ كل منهم فى بلاد الشام تهديداً مباشراً حينذاك..

فقد توجه جزء من الجيش الصليبى بقيادة ريموند دوتولوز جنوباً واحتل معرة النعمان، ثم أخلاها رجاله فى عام ٤٩١ هـ (١٠٩٧ م) بعد أن قتلوا عدداً كبيرا من أهلها وجعلوها طعمة للنيران[١]. ثم سار ريموند غرباً، فاحتل حصن الأكراد[٢]، وهو نقطة عسكرية خطيرة تتحكم فى الممر الواقع بين سهول العاصى والبحر الأبيض المتوسط، وحاصر عرقة — على الحافة الغربية من لبنان الشمالى[٣] — ونزل انطرسوس على الساحل دون مقاومة، غير أنه تنازل عن هذه الأملاك، ورافق الجيش الزاحف إلى بيت المقـــدس، التى كانت الهدف المقصود.

واتجه الفرنجة جنوباً؛ فنزلوا الرملة واستولوا عليها، فصارت أول منطقة لاتينية فى سورية الجنوبية — أى فلسطين[٤] — ثم سار الصليبيون إلى بيت المقدس فى عام ٤٩٢ هـ (١٠٩٨ م) وكانت حامية المدينة من الجنود المصريين، فتمكنوا من فتحها[٥]. ثم أحرزوا نصرا ثانيا على الجيش المصرى عند عسقلان[٦]، فساعد هذا النصر على تثبيت أقدامهم فى القدس، غير أن عسقلان بقيت مقرا للأسطول المصرى، ومركز حامية اعتمد عليها الوزير

---

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩١ هـ؛ أبو الفداء، ج ٢ ص ٢٢١.

(٢) ابن خلدون : ج ٥، ص ١٨٧، وهى قلعة الحصن اليوم، وسميت حصن الأكراد لأنها فى الأصل قلعة بناها أمير حمص سنة ٤٢٣ هـ (١٠٣١ م) وجعلها مقرا لحامية كردية، ارجع الى حتى وجرجى وجبور؛ تاريخ العرب، ج ٣، حاشية ص ٧٥٦.

(٣) حتى وجرجى وجبور : تاريخ العرب، ج ٣، ص ٧٥٦.

(٤) ابن القلانسى : ص ١٣٦.

(٥) ابن الأثير. الكامل، حوادث سنة ٤٩٢ هـ.

(٦) المرجع السابق.

المصرى الملك الأفضل فى الوقيعة بالعدو[١] . وهكذا نشأت ولاية لاتينية ثالثة أصبحت أعظم الولايات مرتبة ، وعهد بالأمر فيها إلى جودفرى شقيق بلدوين؛ وشعر كثير من الصليبيين والحجاج — بعد هذا كله — أنهم قد أوفوا نذورهم فأبحروا عائدين إلى أوطانهم[٢] .

وكان أول عمل وجه جودفرى إليه اهتمامه هو إخضاع مدن الساحل حتى تيسر له الاتصال بأوروبا ، فاستعان بالسفن الإيطالية التى كانت تنقل الحجاج وقد أدرك أصحابها أن امتلاك تلك المدن الساحلية يفتح أسواقاً جديدة وموانىء حرة لبضائعهم ، واستطاعت السفن الإيطالية أن تبسط نفوذ الصليبيين على يافا وأرسوف وقيسارية وعكا وحيفا[٣] فى عام ٤٩٤ هـ (١١٠٠ م) ، وكان الأسطول المصرى الفاطمى هو الأسطول الوحيد الذى يستطيع حماية هذه المدن الساحلية ، ولكنه لم يؤد خدمة تستحق الذكر .

كما توغل الصليبيون داخل البلاد ، فاستولوا على بيسان وأخضعوا نابلس[٤] ، وبذلك سيطر الصليبيون على سواحل الشام وكثير من بلاد الشرق الإسلامى ، وأصبحوا أعظم خطر يهدد العالم الإسلامى فى ذلك الوقت .

غير أن السلاجقة كانوا مشغولين بحروبهم الداخلية والتطاحن للظفر بالعرش لذا لم ينتبهوا لهذا الخطر العظيم أو يقدروا خطورته تقديراً صحيحاً ، كما كان

---

(١) ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٣٩ وما بعدها .

(٢) حتى وجرجى وجبور : تاريخ العرب ، ج ٣ ، ص ٧٥٧ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٤ هـ .

(٤) ابن القلانسى : ص ١٣٨ .

الخليفة العباسى فى بغداد فى درجة من الضعف لا تمكنه من المساهمة فى صد هذا الخطر ، فلم يبد كل من السلاجقة والعباسيين اهتماما بالحملة الصليبية، وتركوا الحروب الصليبية يتفاقم خطرها فى سورية وفلسطين دون القيام بدور إيجابى ذى بال ، ولما فتح الصليبيون بيت المقدس فى عام ٤٩٢ هـ أقبل وفد من الشام مستغيثاً بأولى الأمر مستنفرا، فبكوا وأبكوا، وذكروا ما دهم المسلمين بذلك البلد الشريف ولكنهم عادوا من غير قضاء حاجة[١] ، وأحال الخليفة المستظهر رجال الوفد إلى السلطان بركيارق — الذى بدأت تنحل به سلطنة السلاجقة وانتهت المفاوضات عند هذا الحد .

وفى سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧م) أحدق الفرنج بطرابلس، فسار وفد من أهلها إلى بغداد، وكان على رأسه زعيم المدينة المحاصرة فانقضى أمر استغاثتهم ولم يظفروا بطائل[٢] ، وبعد ثلاث سنوات أقلعت من مصر مراكب فيها أمتعة كثيرة لتجار من حلب فوقع عليها الفرنج وأخذوها بما فيها ، فسار جماعة من حلب إلى بغداد مستنفرين على الفرنج ، واجتمع معهم خلق كثير من الفقهاء وغيرهم ودخلوا جامع السلطان وهو حاضر ، وكسروا المنبر وكسروا شباك المقصورة وبطلت الصلاة ، فأرسل الخليفة المستظهر حينئذ إلى السلطان محمد السلجوقى يكل إليه الاهتمام بهذا الفتق، فتقدم إلى من معه من الأمراء بالتجهز للجهاد ، والسير إلى قتال الفرنج، فساروا وهم عدد قليل فلم يصنعوا شيئاً[٣] . وهكذا كانت تدور هذه المعارك حامية الوطيس بين الفرنج والمسلمين وأمير المؤمنين والسلطان السلجوقى لا يكادان يفعلان شيئاً . حتى حاول السلطان محمد أن يرد

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(٢) المرجع السابق ، حوادث سنة ٥٠١ هـ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنتى ٥٠٤ هـ ، ٥٠٥ هـ .

كيد الصليبيين بعد أن عظم خطرهم . فأرسـل — فى أواخر عام ٥٠٧ هـ (١١١٤ م) — جيشاً لقتالهم غير أن هذا الجيش لم يوفق فى أداء مهمته ، لأن خلافاً حدث بين أمراء الجزيرة وأمراء الشام ، فتسبب فى تمزيق صفوف المسلمين ، وأدى إلى هزيمتهم فى عام ٥٠٩ هـ (١١١٥ م)[١] ، فازداد الصليبيون قوة وخطرا .

---

(١) المرجع السابق ، حوادث سنتى ٥٠٨ هـ ، ٥٠٩ هـ .

الفصل السادس

انقسام دولة السلاجقة

بدأت الدولة السلجوقية تتفكك منذ وفاة السلطان ملكشاه ، فكان عصر بركيارق — كما رأينا مسرحا للفتن والحروب الداخلية طمعا فى عرش السلطنة من ناحية ، وفى منصب الوزارة من ناحية أخرى ، مما أضعف السلاجقة وشجع أعداءهم على منازلتهم . وتربص الدوائر بهم .

وكان الاسماعيلية والصليبيون ألد أعداء السلاجقة فى ذلك الوقت ، ما الاسماعيلية فكانوا يكمنون داخل الدولة ويسيطرون على كثير من الحصينة . وكان زعيمهم الحسن بن الصباح لايزال يحتفظ بقوته ويزاول نشاطه .

وأما الصليبيون فكانوا يرابطون على حدود الدولة الغربية ويبسطون نفوذهم على كثير من الأجزاء المهمة فى بلاد الشام وفلسطين .

وقد ورث السلطان محمد تركة مثقلة بالأعباء ، فحاول أن يقضى على الفتن المختلفة التى تهدد دولة السلاجقة فوفق فى الحد من نفوذ الإسماعيلية غير أنه فشل فى الحد من خطر الصليبيين .

النزاع حول العرش :

لم يكد السلطان محمد يتوفى فى عام ٥١١ (١١١٨ م) حتى بدأت المنازعات حول عرش السلطنة تطل برأسها من جديد ، فأخذ السلاجقة ينقسمون على أنفسهم ، وفى وقت كان أعداؤهم يحدقون بهم من كل جانب فقد أمر السلطان محمد قبيل وفاته بإسناد السلطنة إلى ابنه محمود ، فأسندت إليه عقب وفاة والده ،

وكان إذ ذاك فى الرابعة عشرة من عمره ، ووافق الخليفة المستظهر بالله العباسى على ذلك ، فذكر اسم السلطان محمود فى الخطبة فى بغداد[١] ، ولكن عمه سنجر وإلى خراسان وما وراء النهر استنكف أن يكون تابعا لابن أخيه ، فأعلن نفسه سلطانا على السلاجقة ، وهكذا وجد سلطانان فى وقت واحد ، وظهرت على الدولة علامات الانقسام .

وبدا واضحا — فى ذلك الوقت — أن دولة السلاجقة الرئيسية فى إيران والعراق قد صارت قسمين متميزين : سلاجقة الشرق أو سلاجقة خراسان ويمثلهم السلطان سنجر ، وسلاجقة الغرب أو سلاجقة العراق ويمثلهم السلطان محمود . وأخذ ، كل من المعسكرين يكيد للاخر فاشتعلت الحرب بينهما وكان النصر حليف سنجر[١] ؛ فاعترف له الخليفة العباسى بالسلطنة

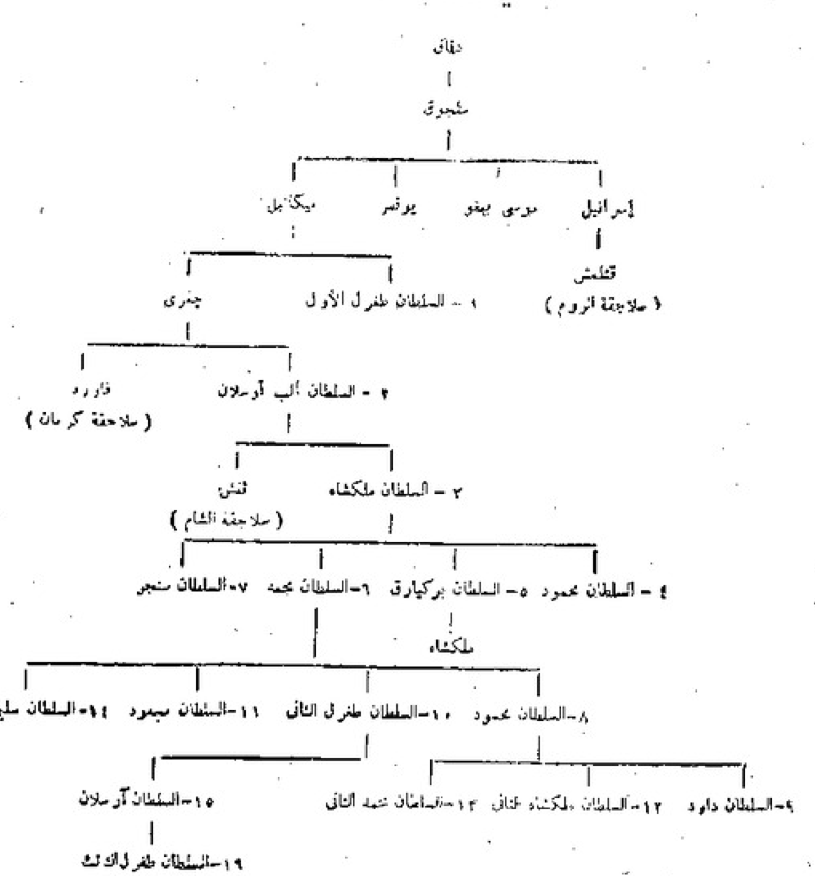
ولم يلبث سنجر أن عطف على ابن أخيه « محمود » فصالحه ؛ وعينه وليا لعهـــده وكتب بذلك إلى سائر الولايات التى تخضع لحكمه — مثل خراسان وغزنه وما وراء النهر — ؛ كما أحاط الخليفة العباسى علما بذلك وأعاد عليه جميع ما أخذه من البلاد ما عدا مدينة الرى التى اتخذها قاعدة له ، لمراقبة محمود وخشية أن تحدثه نفسه بالخروج عليه مرة أخرى .

وانتهى بذلك التنازع على عرش السلاجقة ، ولكن دولتهم كانت فى الحقيقة ـ ممزقة الأوصال ، فلم تكن أجزاء الدولة تخضع لحكم سلطان واحد كما كانت الحال فى عهد طغرل الأول وألب آرسلان وملكشاه . بل كان كل جزء من أجزاء دولتهم فى إيران والعراق وآسية الصغرى والشام يكاد

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث ٥١١ هـ .

(٢) الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١١

سلاجقة إيران والعراق



يكون مستقلا ، يصرف شئونه حكامه دون اتصال أو تعاون بين هؤلاء الحكام ، وكانت المنازعات الداخلية تشغلهم عن أي هدف آخر .

وكان كل من سنجر ومحمود يحمل لقب السلطان ، واستمر هذا الوضع بعد وفاة السلطان محمود ، فأصبح هناك سلطان لسلاجقة العراق برغم وجود سنجر السلطان الأعظم في خراسان ، وأخذ تاريخ السلاجقة يتطور تطوراً جديداً أدى إلى سقوطهم في النهاية كما سيأتي .

* * *

سلاجقة خراسان :

كان سنجر والياً على خراسان وما وراء النهر من قبل أخويه بركيارق ومحمد ، وكان يسمى ملك المشرق ، وقد ظل في هذه المنطقة بعد توليه عرش السلطنة ، فأطلق على السلاجقة الذين يحكمهم سنجر اسم « سلاجقة خراسان » تمييزاً لهم عن « سلاجقة العراق » ، كما سموا « السلاجقة العظام » لأن « سلاجقة العراق » كانوا يعترفون لسنجر بالزعامة على السلاجقة ، كما اعترف له الخليفة العباسي بهذه المنزلة أيضاً ، فعد سنجر آخر سلاطين السلاجقة العظام الذين اعترف لهم جميع حكام السلاجقة في عصره بالزعامة والسلطنة .

وقد استطاع سنجر — قبل توليه عرش السلطنة — أن يوطد نفوذه ، وأن يقوم بفتوحات ، بسطت هذا النفوذ على بلاد أخرى ، فتمكن من فتح ترمذ وطخارستان في عام ٤٩١ هـ (١٠٩٧ م) . وضمهما إلى حوزته [١] ، كما استطاع أن يبسط نفوذه على إقليم ما وراء النهر في عام ٤٩٥ هـ (١١٠١ م) [٢] ،

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

وبلغت قوته حدا مكنه من هزيمة آرسلان شاه الغزنوى ، وفتح غزنه فى عام ٥١١ هـ (١١١٦ م) .

وقد ازدادت قوته بعد توليه عرش السلطنة ، وتجلت فى انتصاره على ابن أخيه « محمود » ، فبسط انتصاره نفوذه على أكثر أجزاء إيران والعراق وصارت له الكلمة العليا فى أقاليم ما وراء النهر وخراسان وطبرستان وكرمان وسجستان وإصفهان وهمذان والرى وآذربيجان، وأرمينية وبغداد والعراقين والموصل وديار بكر وديار ربيعة والشام والحرمين ، وصارت تضرب له السكة فى هذه الأقاليم وبلادها ، ويطأ بساطه ملوكها .

غير أن الحروب لم تنقطع فى عصر سنجر ، فقد كانت الأقاليم المجاورة له تغلى بالأحداث ، ولعل من أبرز هذه الأحداث الجديرة بالتسجيل فى شرق إيران ظهور دولتين فتيتين ، هما الدولة القره خطائية ، والدولة الخوارزمية، وهما دولتان مشهورتان ، لعبت كل منهما دوراً مهماً موجهاً فى تاريخ السلاجقة بصفة خاصة ، وفى توجيه سير الأحداث بصفة عامة ، فى أثناء القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) .

* * *

الدولة القره خطائية :

كانت القبائل القره خطائية مجموعة من القبائل التركية التى سكنت شمال شرق إيران فى عهد السلاجقة ، وقد استطاعت هذه القبائل أن تثبت أقدامها فى تلك المنطقة ، وأن تؤسس دولة فى عام ٥١٨ هـ (١١٢٤ م) متخذة مدينة « بلاساغون » عاصمة لها ، وعرفت هذه الدولة باسم « الدولة القره خطائية »

نسبة إلى هذه القبـــائل ، وكان يطلق على كل ملك من ملوكها لقب « گورخان »[١] .

وقد ازدادت قوة هؤلاء الخطائيين حتى استطاعوا بسط نفوذهم على المناطق المجاورة لهم ، فتمكنوا من إخضاع القبائل التركية التى كانت تعرف باسم « قيرقيز » ، ثم هاجموا « كاشغر » و « ختن » ، واستطاع والى « كاشغر » أن يوقف سيلهم الجارف .

غير أنهم عاودوا الاغارة على البلاد الإسلامية فى عام ٥٣١ ﻫ (١١٣٦م)، فأمعنوا فيها سلباً ونهباً وقتلا وتدميراً وجاسوا خلال الديار ، فأصيب الناس بذعر شديد ، واستنجدوا بالسلطان سنجر .

ولم يجد سنجر بدا من التحرك لقتالهم ، فأعد جيشاً كبير العدد، وافر العدة حتى يتمكن من القضاء على جميع القبائل التركية المتمردة ، التى شكا عماله فى تلك النواحى من كثرة اعتداءاتها ، فتوجه فى عام ٥٣٥ ﻫ(١١٤٠ م) ، إلى إقليم ما وراء النهر[٢] ، وأحست طوائف الأتراك بشدة بأسه ،فأرسلت طائفة « القيرلق » وطوائف الأتراك « القره خطائيـة » إليه تعرض اعتذارها ، وتتعهد بالطاعة والولاء والخضوع .

غير أنه رفض عروضها ، وصمم على استئصال شأفتها ، فاضطر أفراد هذه الطوائف إلى منازلة سنجر والاستماتة فى قتاله ، والتحموا معه فى معركة عنيفة عند قطوان ، بالقرب من سمرقند ، فى عام ٥٣٦ ﻫ (١١٤١ م) .

وقد أبلى « القيرلق » و « القره خطائيون » فى هذه المعركة بلاء حسناً ،

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، حواشى، ص ١٧٢ ، إقبال : تاريخ إيران ، ص ١٢٦ .
(٢) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٢٧٦ — ٢٧٧ .

فتمكنوا من هزيمة سنجر هزيمة نكراء ، ووقعت زوجته أسيرة فى أيديهم، وولى هو الأدبار [1] .

وكانت موقعة « قطوان » حداً فاصلا بين عهدين من سلطنة سنجر ، عهد القوة وغلبة النفوذ ، وعهد الضعف والانهيار ، كما كانت ذات آثار خطيرة فى تاريخ السلاجقة ، فقد قوى أمر الخطائيين ، فأخذوا — منذ ذلك الوقت — يبسطون نفوذهم على إقليم ما وراء النهر وكاشغر ، كما استولوا على سمرقند وبخارى ، وتعهد الخانيون — من آل آفراسياب — بدفع الخراج لهم ، فصاروا بذلك خطراً جسيما يهدد سنجر وسلاجقة المشرق ، واستمرت دولتهم حتى عام ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) ، حينما استطاع علاء الدين محمد الخوارزمى القضاء عليها .

كما جرأت هزيمة سنجر حكام الدولة الخوارزمية ، فتمردوا عليه ، فبدأ نجم السلاجقة فى المشرق يأفل تدريجياً ، وكان لهذا كله صدى بعيد فى تاريخ السلاجقة بصفة عامة .

. . .

الدولة الخوارزمية :

ينتسب ملوك الدولة الخوارزمية إلى عبد تركى كان يسمى « آنوشتكين » ، وكان « آنوشتكين » هذا ضمن جماعة العبيد الذين اشتراهم أحد أمراء السلاجقة فى غرجستان ، وقد استطاع أن يظهر من الكفاءة واللياقة ما فتح أمامه باب الترقى فى عهد السلطان ملكشاه ، فعينه والياً على خوارزم . فظل يتمتع بهذا المنصب حتى توفى فى عام ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) فخلفه ابنه قطب الدين محمد الذى أطلق

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٦ هـ .

على نفسه لقب « خوارزمشاه » أى « ملك خوارزم » [١] ، وأسس دولة عرفت فى التاريخ باسم الدولة الخوارزمية ، ثم أخذت هذه الدولة تظهر على مسرح التاريخ تدريجيا ، ولو أن ملوكها تظاهروا فى البداية بالطاعة والولاء للسلاجقة ، فعدوا أنفسهم معينين من قبلهم .

وقد أسند سنجر ولاية خوارزم إلى علاء الدين اتسز بعد وفاة أبيه قطب الدين محمد ، فظل اتسز على وفاق مع سنجر ؛ فلم يفكر فى محاربته أو الخروج عليه ، فاطمأن سنجر إليه ، حتى إنه صحبه معه فى حملته ضد فخر الدين بهرامشاه الغزنوى فى عام ٥٢٩ هـ [٢] (١١٣٤ م) .

واطمأن اتسز إلى قوته واستقرار نفوذه ، فحاول أن يجعل دولته مستقلة استقلالا تاما عن السلاجقة ، فثار على سنجر فى عام ٥٣٠ هـ (١١٣٥ م) بعد عودته من غزنه ، وأخذ يهاجم الهضاب التى تقع فى أسفل جيحون ، فتمكن من انتزاع هذه المنطقة من قبضة السلاجقة ، وضمها إلى منطقة نفوذه . فبدأ بذلك مرحلة جديدة من النزاع بين السلاجقة والخوارزميين .

ولم يجد سنجر بدا من السير لقتال اتسز ، فعبأ الجيوش وتوجه لقتاله فى شهر المحرم من عام ٥٣٣هـ (١١٣٨م) ، فسار من بلخ إلى خوارزم ، واشتبك الطرفان بالقرب من « هزاراسب » .

وقد انتصر سنجر فى هذه المعركة انتصاراً مؤزراً ، وتمكن من القضاء على عدد كبير من جند اتسز ، فولى اتسز الأدبار بعد هذه الهزيمة النكراء ، ووقع ابنه أسيراً في يد سنجر ، ثم أسند ولاية خوارزم إلى ابن أخيه هو

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٠ هـ .

(١) المرجع السابق ، حوادث سنة ٥٢٩ هـ .

غياث الدين سليمان بن محمد السلجوقي [١] ، ولكن اتسز تمكن من العودة إلى خوارزم بعد مغادرة سنجر لخراسان ، واستطاع التغلب على سليمان هذا ، وطرده بمساعدة الأهالى أنفسهم ، غير أنه خشى فى الوقت نفسه أن يسير سنجر لقتاله من جديد ، فحاول أن يسترضيه بالحسنى ، فأرسل إليه فى ذى الحجة من عام ٥٣٥ هـ (١١٤٠ م) ، يتعهد بإطاعة أمره ، وعدم الخروج عليه مرة أخرى ، وتمكن بهذا من كسب رضا السلطان ، ولو أنه كان فى الحقيقة مستقلا عن السلاجقة استقلالا تاما .

وقد شجعت الهزيمة التى منى بها سنجر فى قطوان فى عام ٥٣٦ هـ (١١٤١م) اتسز على معاودة العصيان منتهزا فرصة ضعف سنجر واضمحلال قوته ، فأخذ يغير على المناطق الشرقية — الواقعة بين كاشغر وبخارى — وتمكن من انتزاعها من يد سنجر ، وحاول فى الوقت نفسه أن يؤلب الأقطار الإسلامية ضد سنجر بعد أن كانت مطيعة له ، فتجددت بذلك الحروب بين الطرفين ، فقطع اتسز خطبة السلطان سنجر ، وأمر أن تقرأ الخطبة باسمه هو ، وسير جيشه إلى أعمال بيهق ، فانتشر الجيش بخراسان ينهب ويرتكب أعمالا شنيعة وتمكن اتسز من الاستيلاء على هذه البلاد وغيرها من خراسان [٢] .

وأخذ سنجر يعد العـــدة للانتقام من اتسز ، ثم توجه لقتاله فى عام ٥٣٨ هـ [٣] (١١٤٣ م) ، فتحصن اتسز فى مدينة خوارزم ، فحاصره سنجر . وخشى اتسز على ملكه فأخذ يقدم الاعتذار ، ويظهر الطاعة والانقياد ، ويلتمس العفو من السلطان حتى تم الصلح بين الطرفين ، فعاد سنجر إلى مرو .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٣ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٦ هـ الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٧٤ ، البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ص ٢٨٠ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ، فى حوادث سنة ٥٣٨ هـ .

وهكذا استمر سنجر يحارب ويستعد للحروب ، فكان لا يفرغ من موقعة حتى يستعد لموقعة جديدة ، كما واصل اتسز تمرده ، وكانت كفة سنجر هى الراجحة غالبا ، غير أن اتسز كان داهية ، فلا يكاد يشعر برجحان كفة سنجر حتى يعتذر له ويلتمس العفو ، ويظهر الطاعة والولاء ، وكان سنجر ساذجا ، فكان يخدع بهذا التظاهر ، فيرضى بالصلح .

وقد وقعت الحرب الأخيرة بين اتسز وسنجر فى عام ٥٤٣هـ[١] (١١٤٨م) وانتهت بإقرار اتسز على خوارزم ؛ فرسخت أركان الدولة الخوارزمية ، وأخذت تظهر بقوة على المسرح السياسى ، بينما أخذت قوة سنجر تنهار ، وتسير إلى الهاوية بخطى سريعة .

. . .

سلاجقة العراق :

ولم تقتصر الاضطرابات على الأجزاء الشرقية من دولة السلاجقة بل شملت الأجزاء الأخرى ، فانتشرت فى العراق وآذربيجان والشام ، مما جعل معسكر سلاجقة العراق مضطربا أشد الاضطراب ، وكان السلطان سنجر برغم اشتغاله بقتال الخطائيين والخوارزميين يضطر أحيانا إلى التدخل لقمع الفتن ، وإقرار الأوضاع .

وكان كل فرد من أفراد البيت السلجوقى يعد نفسه مستقلا فى الجزء الذى يخضع لنفوذه ، ويحاول أن يوسع منطقة هذا النفوذ ، ويسعى للوصول إلى السلطنة ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، مما أدى إلى كثرة الحروب وتعدد ميادينها .

---

(٢) المرجع السابق ، حوادث سنة ٥٤٣ هـ .

فلم يكد السلطان محمود يفرغ من قتال عمه السلطان سنجر، حتى رفع أخوه الملك مسعود حاكم الموصل وآذربيجان علم الثورة ضده — في ربيع الأول من عام ٥١٤ هـ[1] (١١٢٠ م) — ووقعت الحروب بينهما، فهزم مسعود ورجاله.

وأدى اضطراب الحالة في آذربيجان وما جاورها إلى تجرؤ حكام جورجيا، فأغاروا على بلاد المسلمين في عام ٥١٣ هـ (١١١٩م) وتصدى طغرل أخو محمود لقتالهم، ولكنه هزم، فأمعن الكرج[2] في المسلمين قتلا، وأخذوا يغيرون على البلاد، حتى بلغوا مدينة تفليس فحاصروها حصاراً شديداً استمر إلى عام ٥١٤ هـ (١١٢٠ م) حتى اضطر أهلها إلى التسليم.

ولجأ الناس مستصرخين إلى السلطان محمود في عام ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) وكان — حينذاك — يقيم في همذان، فسار إلى آذربيجان، وأقام في مدينة تبريز، وأخذ يستعد لقتال الكرج الذين كان المسلمون يخشون بأسهم خشية شديدة، ثم توجه لقتالهم، وصمد لهم، وانضم إليه أهل « شروان »، بينما وقع خلاف شديد بين الكرج، فاختلت صفوفهم، وانتهى الأمر بانتصار السلطان محمود، ورحيل الكرج عن بلاد المسلمين في عام ٥١٧ هـ (١١٢٣م) وأقام السلطان محمود مدة في شروان، ثم رحل إلى همذان بعد أن اطمأن إلى استقرار الحالة[3].

وهكذا كانت الحالة في شرقي العالم الإسلامي سيئة مملوءة، بالفتن والاضطرابات، كما كان غربي العالم الإسلامي يموج بالأحداث الجسام، فكان أمراء السلاجقة في سورية وما بين النهرين في نزاع دائم، وكان كل منهم

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥١٤ هـ.

(٢) هكذا كانوا يسمون في الكتب الإسلامية و « الكرج » بالكاف الفارسية أي « الجورج » وكانت بلادهم تسمى « گرجستان » أي بلاد الجورج.

(٣) ابن الأثير : الكامل حوادث سنتي ٥١٤ و٥١٧ هـ.

يحاول الاتصال بالسلطان السلجوقى بغية الظفر بنفوذ أوسع .

وكانت فلسطين وبعض أجزاء سورية الساحلية تحت حكم الفاطميين ، وكانت أوضاعها فى غاية من الفوضى والاضطراب نظراً لاختلال إدارتها ؛ أما مصر فكانت تشهد فساد حكم الفاطميين ، لأن الخليفة الفاطمى كان فى حالة من الضعف جعلته دمية فى أيدى الوزراء وقواد الجيش الذين كانوا مشغولين بتدبير المؤامرات ضد بعضهم البعض ، أملا فى الظفر بالنفوذ والسلطان

ولم يكن الخليفة العباسى فى بغداد بأحسن حالا من الخليفة الفاطمى فى القاهرة ، مما جعل العالم الإسلامى — فى كثير من أجزائه — عرضة لأطماع الطامعين من المسلمين وغير المسلمين ، ومكن الصليبيين — كما ذكرنا — من شق طريقهم إلى بيت المقدس ، وتثبيت أقدامهم فى كثير من أجزاء الشام وآسية الصغرى ؛ وقد أغراهم تفرق المسلمين وضعفهم وانقسام الدولة السلجوقية ، واشتداد الفتن بين المسلمين أنفسهم بمحاولة توسيع رقعة الأراضى التى تحت أيديهم ، فأضافوا إليها مدينة صور فى عام ٥١٧ هـ (١١٢٣ م) وكانت من أمنع حصون البلاد ، فازدادوا قوة على قوة ، وصاروا شوكة فى جنب المسلمين .

ومما زاد الطين بلة ، انقطاع الأمطار فى العام نفسه فى العراق والموصل وبلاد الجزيرة والشام وديار بكر وكثير من بلاد المسلمين ، مما أدى إلى قلة الأقوات ، وغلاء الأسعار فى جميع البلاد ، واستمر سوء الحالة الاقتصادية إلى عام ٥١٩ هـ (١١٢٤ م) .

وقد شجع ضعف السلاجقة وتفرقهم الاسماعيلية فعظم أمرهم بالشام وقويت شوكتهم ، فملكوا قلعة « بانياس » فى ذى القعدة من عام ٥٢٠ هـ (١١٢٥م)

---

(١) المرجع السابق ، حوادث سنة ٥١٨ و ٥٢٠ هـ .

وتمكنوا من قتل قسيم الدولة آقسنقر البرسقي صاحب الموصل .

وليت الأمر اقتصر عند هذا الحد ، بل إن حدة الخلاف بين المسلمين وصلت إلى درجة حدوث خلاف بين الخليفة العباسي في بغداد ، وسلاجقة العراق ، فثار خلاف بين المسترشد بالله العباسي والسلطان محمود السلجوقي ، وتوجه السلطان محمود لحصار بغداد ، وحدثت مناوشات كثيرة بين الطرفين ، ثم انتهى الأمر بدخوله بغداد ، بعد أن تم الصلح بينه وبين الخليفة ، فأقام فيها إلى شهر ربيع الثاني من عام ٥٢١ (١١٢٦ م) ثم رحل إلى همذان (١) .

وكان الوزراء — أيضاً — في نزاع دائم ، فكانوا يدبرون المؤامرات لبعضهم البعض ، وكثيراً ما كانوا يحرضون الأمراء والسلاطين ضد بعضهم البعض ، مما زاد الفتن اشتعالا ، والحالة اضطراباً .

النزاع حول عرش سلاجقة العراق :

ولم تلبث مشكلة اعتلاء عرش السلاجقة في العراق أن أطلت برأسها من جديد ، عقب وفاة السلطان محمود في شوال من عام ٥٢٥ هـ (١١٣٠ م) فتنازع ابنه داود مع عمه مسعود ، وبدأت الحرب من جديد بين أفراد البيت السلجوقي واقتتل الطرفان ثم اصطلحا ، غير أن منافساً آخر لم يلبث أن ظهر في الأفق وهو سلجوقشاه عم داود ، فتقاتل مسعود مع أخيه سلجوقشاه ثم اصطلحا على أساس أن يصبح مسعود سلطاناً على سلاجقة العراق ويصير سلجوقشاه ولياً لعهده ، وكان ذلك في عام ٥٢٦ هـ (١١٣١ م) (٢) ، وأقر الخليفة العباسي المسترشد بالله هذا الوضع ، ولكن هذا الصلح لم يضع حداً للنزاع بين الأمراء

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٠ هـ ، الراوندي : راحة الصدور ، ص ٢٠٥ ، البنداري - مختصر تواريخ آل سلجوق ص ٥٢٦ هـ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٦ .

السلاجقة ، فانتشرت الفتن فى إيران والعراق .

وتدخل السلطان سنجر ليضع حداً للنزاع فاشتبك فى حرب مع جيش مسعود بالقرب من « دينور » فى عام ٥٢٦هـ (١١٣١ م) انتهت بهزيمة مسعود وفراره ، ثم عين سنجر طغرل بن محمد — أخا مسعود — سلطانا على سلاجقة العراق (١) فخطب له فى جميع البلاد وسمى السلطان طغرل الثانى .

ولم يرق داود بن محمد السلجوقى ماحدث من تغيير ، فرفع راية العصيان ، ثم توجه إلى همذان ، فخرج إليه عمه طغرل ، فانهزم داود ولجأ إلى بغداد (٢) .

أما مسعود ، فإنه توجه بعد ذلك إلى همذان — أيضاً — لمحاربة أخيه طغرل - عام ٥٢٧ هـ (١١٣٢ م) - وانتصر عليه ، واستولى على هذه المدينة فظفر بعرش سلاجقة العراق (٣) .

وتكرر القتال بين مسعود وأخيه طغرل وتبادلا النصر والهزيمة (٤) ؛ وقد بذل مسعود جهوداً مضنية حتى استطاع فرض سلطنته على العراق وغربى إيران وحكمها دون منازع .

النزاع بين الخلفاء العباسيين والسلاجقة :

ولكن الفتنة لم تلبث أن أطلت برأسها من جديد بين مسعود والخليفة العباسى المسترشد بالله نفسه ، وكان سبب الفتنة أن الخليفة لم يظهر حماسة كبيرة للسير مع مسعود لقتال خصومه ، ثم خوف الأمراء من مسعود بعد

---

(١) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ١٥٨ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٦ هـ .
(٣) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٢٠٨ — ٢٠٩ .
(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٨ هـ .

استيلائه على همذان — عقب وفاة أخيه طغرل (٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م) — والتجائهم إلى الخليفة العباسي ، مما شجع الخليفة المسترشد بالله على الاستعداد لقتال مسعود ، فأمر بحذف مسعود من الخطبة في بغداد وصمم على السير لقتاله ، وأخذ الأمراء يحسنون له الرحيل ، ويسهلون عليه الأمر ، ويهونون له من شأن مسعود حتى خرج — في عام ٥٢٩ / ١١٣٤ م — لقتاله ولكنه هزم ووقع أسيراً هو وعدد كبير من أصحابه ، وغنم جيش مسعود غنائم طائلة ، وأنزل الخليفة في خيمة ، بينما ألقى أكابر رجاله في السجن [1] ، وأرسل والياً من قبله إلى بغداد ، فثار الناس ، وانتشر الفتنة ، وكثرت المناوشات بين أتباع مسعود ، والعامة في بغداد ، وانتهز الاسماعيلية فرصة وجود الخليفة في خيمة دون حراسة قوية ، فهجموا عليه وقتلوه ومثلوا به أبشع تمثيل ، فبويع ابنه الراشد بالله بالخلافة ، وأيده حاكم بغداد من قبل مسعود [2] .

ومهما يكن من شيء ، فقد أصبح مسعود بعد مقتل الخليفة المسترشد قوياً مرهوب الجانب ، فحاول التخلص من أعدائه وأخذ يبسط نفوذه على سائر أقاليم العراق وما جاوره ، وتوجه مسعود إلى بغداد غير أن النزاع لم يلبث أن تجدد بينه وبين الخليفة العباسي الراشد بالله ، وسواء أكان سبب النزاع مطالبة مسعود الراشد بالله بضريبة كبيرة [3] ، أم رغبة الراشد بالله في الأخذ بثأر أبيه [4] ، فإن الحرب قامت فعلا بين الطرفين في عام ٥٣٠ هـ (١١٣٥ م) واجتمع كثير من الأمراء وحكام الأقاليم حول الخليفة العباسي ، فأمر بحذف

---

(١) البنداري : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ١٧٦ — ١٧٧ الراوندي راحة الصدور ص ٢٢٧ .

(٢) الراوندي : راحة الصدور ، ص ٢٢٨ ، البنداري : مختصر تواريخ آل سلجوق ٢ ص ص ١٧٤ — ١٨٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٩ هـ ، ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٥٦ — ٣٥٧ هـ .

(٣) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٣٠ هـ .

(٤) الراوندي : راحة الصدور ، ص ٢٢٨ — ٢٢٩ ، صدر الدين الحسيني أخبار الدولة السلجوقية ، ص ١٠٨ .

اسم مسعود من الخطبة ، واستقر رأيه على إحلال « داود » محله ، فسار مسعود إلى بغداد وحاصرها نيفاً وخمسين يوماً ، ودب اليأس فى قلوب أنصار الخليفة فتفرقوا ، واضطر الخليفة نفسه إلى الفرار إلى الموصل ، فدخل مسعود بغداد وعزل الخليفة وعين مكانه عمه المقتفى لأمر الله ، وحدد له مخصصاته ، ووضع يده على زمام الأمور فى دار الخلافة .

وتجدد النزاع بين الراشد ومسعود أكثر من مرة ، حتى اغتال الاسماعيلية الراشد كما اغتالوا أباه من قبل وصارت لمسعود الكلمة العليا فى العراق .

وكان النزاع بين السلاجقة والعباسيين من أهم العوامل التى أدت إلى سقوط دولة السلاجقة .

غير أن الحروب والفتن لم تهدأ ، بل ظلت تواصل اشتعالها ، دون انقطاع بين مسعود والخارجين عليه ، مما جعل الدولة مسرحاً للفتن والمناعازت [1] .

فقضى السلطان مسعود أكثر حكمه فى إخماد الفتن [2] ، حتى تخلص من المتمردين على حكمه ، فخلا الجو له ، وظل قوياً مرهوب الجانب فى المناطق الخاضعة لحكم سلاجقة العراق إلى أن توفى فى أول رجب من عام ٥٤٧ هـ (١١٥٢ م) ، فضعفت بموته دولة سلاجقة العراق ، وعادت مسرحا للفتن والحروب الداخلية من جديد ، وصار السلاطين ألعوبة فى أيدى الأمراء وقواد الجيش وأتابكة آذربيجان ، كما سيأتى .

* * *

---

(١) الروانِدى . راحة الصدور ، ص ٢٤١ ، البندارى . مختصر تاريخ آل سلجوق ، ص ١٨٨ .

(٢) ارجع إلى . ابن الأثير . الكامل حوادث سنة ٥٤٠ و ٥٤٢ هـ .

الفصل السابع

إنهيار دولة سلاجقة المشرق

لم تكن الظروف المحيطة بسلاجقة المشرق مواتية ، فقد كان السلطان سنجر شيخا هرما يحمل على عاتقيه عبء السنين، وكانت قوته تنحسر تدريجيا عن كثير من الأقاليم المجاورة له بعد الحروب الكثيرة التى حفل بها عمره ، والتى اضطر إلى خوضها، دفاعا عن حدود دولته، وصونا لنفوذه وهيبة السلاجقة من التبدد والضياع .

حقيقة إن سنجر وفق فى أكثر الحروب التى خاض غمارها ، ولكن كثرة هذه الحروب ، وتعدد ميادينها قد هد قوته ، وفت من عضده ، وفل شوكته ، كما أن هزيمته من الأتراك الخطائيين ، كانت ضربة قوية وجهت إلى الدولة السلجوقية ، وحربة نافذة فى ظهرها ، مما أدى إلى ضياع إقليم ما وراء النهر من يدى سنجر ، فانتهى نفوذ السلاجقة من هذه المنطقة .

وكان من نتيجة ذلك كله أن دولة السلاجقة فقدت السيطرة على أطرافها، فكثرت الدول والإمارات المستقلة حولها، وأهم الدول التى أحاطت بسلاجقة المشرق فى ذلك الوقت واشتبك السلاجقة فى حروب معها هى: الدولة الخوارزمية والدولة الخطائية — وقد عرضنا مراحل النزاع بينهما وبين السلاجقة — والدولة الغورية .

وكانت الدولة الغورية تسيطر على جبال الغور ومدينة فيروز كوه بالقرب من غزنه ، ثم امتد نفوذها إلى هراة ، وحاصر ملكها علاء الدين

وهكذا نلاحظ أن دولة السلاجقة أصبحت — منذ أواخر القرن الخامس الهجرى — مسرحا للحروب الداخلية ، كما كانت جميع الظروف المحيطة بدولتهم سيئة للغاية ، وأصبحت القرائن جميعها توحى بأن دولة كهذه لا يمكن أن تحتفظ بقوتها ، أو أن تصمد أمام أعدائها ، وتستطيع المحافظة على حدودها .

وقد كان أخطر معول هدف كيان دولة السلاجقة ومزق أوصالها تنازع النفوذ ، وكثرة الحروب بين أفراد البيت السلجوقى نفسه ؛ وكانت الأيام تزيد نيران الفتنة اشتعالا بينهم ، فشغلوا بأنفسهم عن أعدائهم الذين كانوا يحيطون بدولتهم من كل جانب ، حتى إن ابن العبرى ليصفهم بقوله : « فكأنما سل طين السلاطين من جفن الجفاء ، وجبلت جبلتهم على الإغفال والإغفاء ، فالرحم عندهم مقطوعة ، والعزة فى خدمتهم بالذل مدفوعة ، والاغترار بهم غرر . وصفوهم كدر ، يقسمون ويحنثون ، ويبرمون وينكثون [١] » .

فكان طبيعيا أن تأخذ أجزاء الدولة السلجوقية فى الانهيار تدريجيا وكانت أجزاؤها الشرقية أسرعها إلى السقوط ، كما سنرى .

---

(١) ابن العبرى تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٤٣ .

حسين الغورى مدينة بلخ ، فتوجه سنجر لقتاله ، ودارت بين الفريقين معركة عنيفة انتهت بانتصار سنجر وأسر علاء الدين ؛ غير أن سنجر أطلق سراحه ورده إلى بلاده . ولم تلبث قوة علاء الدين أن ازدادت فاستولى على غزنة بعد هرب بهرامشاه الغزنوى ، وعين عليها أخاه سيف الدين .

ولكن أهل غزنة ثاروا على سيف الدين وقبضوا عليه وصلبوه ، واستدعوا بهرامشاه مرة أخرى ؛ ويبدو أن هذا حدث فى عام ٥٤٧ هـ[1] (١١٥٢ م) وقد انتقم علاء الدين لأخيه وفتح غزنة ونكل بأهلها فى عام ٥٥٠ هـ (١١٥٥ م) وأخذت الدولة الغورية الفتية تظهر على المسرح السياسى ، وتشترك فى توجيه الأحداث فى إيران والهند منذ ذلك الوقت .

فتنة الغز :

وكانت الفتنة الأخيرة التى قضت على سلاجقة المشرق فتنة الغز التى اشتعلت نيرانها فى مستهل عام ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) .

وكان الغز من بين القبائل التركية ، التى تسكن فى إقليم ما وراء النهر ، وكانوا مسلمين ، فلما استولى الخطائيون على إقليم ما وراء النهر هاجرت طوائف الغز ، وسكنت بالقرب من بلخ ، فأراد الأمير قماج حاكم بلخ إبعادهم ، فأرضوه بالمال والهدايا ، فعفا عنهم ، وأقاموا فى تلك النواحى على حالة حسنة يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، ولكن قماج عاود مطالبتهم بالانتقال عن بلاده ؛ فامتنعوا وانضم بعضهم إلى بعض ؛ واجتمع معهم غيرهم من طوائف الترك ، فسار قماج إليهم ، فحاولوا أن يسترضوه بالمال ، ويستعطفوه ، ولكنه رفض وأصر على أن يتركوا بلاده فاجتمعوا وقاتلوه ، فانهزم قماج ، فنهبوا

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٤٩ هـ .

ماله ومال عسكره وأكثروا القتل فى العسكر والرعايا ، واسترقوا النساء والأطفال ، وعملوا كل عظيمة ، وقتلوا الفقهاء وخربوا المدارس، وانتهت الهزيمة بقماج إلى مرو ، وبها السلطان سنجر ، فأعلمه الحال ، فراسلهم سنجر يتهددهم ، وأمرهم بمفارقة بلاده ، فاعتذروا ، وبذلوا بذلا كثيراً ليكف عنهم ، ويتركهم فى مراعيهم فلم يجبهم إلى ذلك ، وجمع عساكره من أطراف البلاد ، فاجتمع معه ما يزيد على مائة ألف فارس ، وسار إليهم على رأس هذا الجيش الكبير فقاتل الغز ببسالة منقطعة النظير ، وتمكنوا من إنزال هزيمة نكراء بجيش السلطان الجرار ، وأمعن الغز فى جنود السلاجقة قتلا وأسراً ، حتى صار القتلى كالتلال ، وقتل قماج ، وأسر السلطان سنجر ومعه جماعة من الأمراء ، فقتل الغز الأمراء ، وأبقوا سنجر أسيراً ، واستولوا على البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، وظهر منهم من الجور ما لم يسمع به أحد ، فقد خربوا مرو ونيسابور ، وانسابوا فى البلاد المختلفة ، وأمعنوا فى السلب والنهب والقتل ، وجاسوا خلال الديار يفسدون ويدمرون ، حتى خربوا كل بقعة نزلوا بها ، وقد وصف ابن الأثير ما فعلوه بنيسابور فى قوله : « فركب الغز ودخلوا نيسابور ونهبوها نهباً مجحفاً وجعلوها قاعاً صفصفاً ، وقتلوا الكبار والصغار وأحرقوها ، وقتلوا القضاة والعلماء فى البلاد كلها »(١) .

ولما وصل أمراء السلاجقة إلى نيسابور ، أحضروا سليمانشاه ابن السلطان محمود ونصبوه سلطاناً ، فاجتمعوا عليه ، وخطبوا له بالسلطنة ، وسار جماعة من العسكر السلطانى إلى طائفة كثيرة من الغز ، فأوقعوا بهم وقتلوا منهم كثيراً وانهزم الباقون ، فلما اجتمع الجند حول سليمانشاه ، وساروا إلى مرو يطلبون الغز ، برز الغز إليهم ، فانهزم جند خراسان ، وولوا الأدبار وقصدوا

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٤٨ هـ .

نيسابور، فتبعهم الغز، فمروا بطوس — وهي معدن العلماء والزهاد — فنهبوها وسبوا نساءها وقتلوا رجالها، وخربوا مساجدها ومساكن أهلها، وأفنوا من بها من الشيوخ الصالحين، وساروا منها إلى نيسابور، فوصلوا إليها في شوال سنة تسع وأربعين وخمسمائة هجرية. ولم يجدوا دونها مانعاً ولا مدافعاً، فنهبوها نهباً ذريعاً، وقتلوا أهلها فأكثروا، وسبوا نساءها وأطفالها، وأخذوا أموالها، وأحرقوا ما بها من خزائن الكتب، وانتشر الغز في مدن خراسان الأخرى، وفعلوا بها ما لم يفعله الكفار مع المسلمين.

أما السلطان سليمانشاه فقد ضعف، وكان قبيح السيرة سيء التدبير، وكان وزيره طاهر بن فخر الملك ابن نظام الملك قد توفي في شوال سنة ثمان وأربعين فضعف أمره، واستوزر بعده ابنه نظام الملك أبا على الحسن بن طاهر، وانحل أمر دولته بالكلية ففارق خراسان في صفر سنة تسع وأربعين وخمسمائة وعاد إلى جرجان، فاجتمع الأمراء وراسلوا الخان محمود بن محمد بن بغراخان ابن أخت السلطان سنجر، وخطبوا له على منابر خراسان. واستدعوه فملكوه أمورهم وانقادوا له في شوال سنة تسع وأربعين وخمسمائة وساروا معه إلى الغز وهم يحاصرون هراة، وجرت بينهم حروب كان الظافر في أكثرها للغز (١).

وكان للسلطان سنجر مملوك اسمه أي أبه ولقبه المؤيد، فلما كانت هذه الفتنة، تقدم وعلا شأنه، وأطاعه كثير من الأمراء، فاستولى على نيسابور وطوس ونسا وأبيورد وشهرستان والدامغان، وأزاح الغز عن الجميع، وقتل منهم خلقاً كثيراً وأحسن السيرة وعدل في الرعية، واستمال الناس ووفر الخراج على أهله

---

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٤٩ هـ.

وبالغ فى مراعاة أرباب البيوت. فاستقرت البلاد ودانت له الرعية لحسن سيرته وعظم شأنه ، وكثرت جموعه .

أما الخان محمود بن محمد، فإنه لما يئس من قتال الغز ، سار إلى نيسابور ، فوجد أن المؤيد قد غلب عليها ، فراسل الغز فى الصلح فاصطلحوا فى رجب من سنة خمسين وخمسمائة (١١٥٥ م) وكانت هدنة على دخل[١] .

وأما السلطان سنجر فإنه ظل أسيراً فى أيدى الغز ثلاث سنوات وبضعة أشهر، ثم تمكن من الهرب من الأسر فى رمضان من عام ٥٥١ هـ[٢] (١١٥٦م) حتى وصل إلى دار ملكه « مرو » فاجتمع الناس حوله ، وجلس على عرشه مرة أخرى ، غير أنه كان قد أصبح شيخاً محطماً ، فلم يقو على تحمل صدمة ما رآه فى دياره من مظاهر الدمار ، فمرض ومات كمـــــداً وحزناً فى عام ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) .

والواقع أن فتنة الغز كانت الضربة القاضية التى أنهت دولة السلاجقة فى المشرق بصفة فعلية ، وكان موت سنجر خاتمة لعهد سلاطين السلاجقة العظام ، فقد استطاع سنجر ، فى الجزء الأكبر من مدة حكمه أن يسيطر على جميع أجزاء الدولة السلجوقية المترامية الأطراف، فامتد نفوذه من حدود الهند والصين إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط ، وخشيه حكام خوارزم والغور وغزنة وماوراء النهر وسلاطين العراق ، فى صورة لم تتيسر لغيره ، وانتصر فى أكثر حروبه فلم يهزم إلا على أيدى الخطائيين والغز ، فكان عصره إحياء وامتداداً لعصور طغرل الأول وألب آرسلان وملكشاه حينما كانت الدولة السلجوقية جميعها

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٥٠ هـ .

(٢) المرجع السابق ، حوادث سنة ٥٥١ هـ ، راحة الصدور ، ص ١٦٨ — ١٨٣ .

تدين بالولاء لسلطان واحد ، ولذلك يسمى هؤلاء جميعا بالسلاجقة العظام ، ويعد سنجر آخرهم .

كما أن عصر سنجر من العصور المهمة فى تاريخ الأدب الفارسى ، فقد رعى سنجر الشعراء والكتاب ، وإن المدح الذى قيل فى سنجر — وحفظته لنا الكتب — ليدل على مبلغ رعايته للشعراء وإثابته لهم ، وتشجيعه إياهم ، كما أن الكتب الكثيرة التى قدمت له ، وألفت تحمل اسمه ، لتدل هى أيضا على مدى تشجيعه للعلماء والمؤلفين ، برغم أنه لم يكن متعلما ، وقد عوض عدم تعلمه بتشجيعه للعلم والأدب ، فأبقى اسمه وذكره فى التاريخ .

ومن أهم الشعراء الذين توفروا على مدح سنجر معزى النيسابورى وأنورى الأبيوردى ، فقد مدح هذان الشاعران العظيمان سنجر بمدائح خالدة ، وهناك شعراء آخرون كثيرون مثل اديب صابر وعبد الواسع الجبلى وسيد اشرف حسن الغزنوى وسنائى الغزنوى قالوا قصائد كثيرة فى مدح سنجر ، والتغنى بصفاته الحميدة ، ورعايته لأهل العلم والأدب .

والواقع أن دولة السلاجقة أخذت فى الانهيار بعد فتنة الغز وموت سنجر . فلم يلبث حكام خوارزم أن استولوا على جميع ممتلكات السلاجقة فى خراسان ، فسقطت بذلك دولة سلاجقة المشرق أو دولة السلاجقة العظام ، ولم تقم لهم قائمة فى تلك النواحى بعد ذلك .

أما سلاجقة العراق ؛ فإنهم اخذوا — أيضا — فى الضعف والتدهور ، وظلوا يسرعون إلى الانهيار بخطى واسعة ، حتى سقطت دولتهم فى عام ٥٩٠ هـ على أيدى حكام الدولة الخوارزمية ، مما سنتبينه فيما يلى ، وكان انهيار دولة سلاجقة المشرق عاملا من عوامل انهيار دولة سلاجقة العراق .

• • •

الفصل الثامن

ضعف سلاجقة العراق

نفوذ الأتابكة :

كان لأمراء الجيش والأتابكة نفوذ كبير فى دولة السلاجقة بعامة وسلاجقة العراق بخاصة ، وكان هذا النفوذ يظهر بين الحين والحين فى تحريض أفراد البيت السلجوقى بعضهم ضد البعض الآخر ، وفى بث روح الغدر وعدم الثقة ، غير أن الأمراء كانوا حتى موت السلطان مسعود يستترون وراء السلاطين ، فلم يكد مسعود يتوفى حتى ظهر هؤلاء الأمراء والأتابكة على المسرح ، وبرزت شخصياتهم وأسماؤهم ، وأخذوا يقومون بالأدوار الرئيسية ، وأصبحوا هم أصحاب النفوذ والسلطان ، وصار سلاطين السلاجقة أدوات فى أيديهم ، يأتمرون بأوامرهم ، وينفذون رغباتهم ، دون أن يكون لهم نفوذ ، أو شخصية واضحة مميزة .

وكان من أكثر الأمراء نفوذاً بعد وفاة مسعود خاص بك ابن بلنكرى وكان السلطان مسعود قد عهد بولاية العهد إلى ملكشاه ابن أخيه السلطان محمود ، فلما توفى خطب له الأمير خاص بك ، ورتب الأمور وقررها بين يديه وأذعن له جميع العسكر بالطاعة [1] والولاء ، وأصبحت جميع مقاليد الأمور فى يد خاص بك بينما انصرف ملكشاه إلى اللهو والشراب ، فقبض عليه خاص بك ، وأرسل إلى أخيه محمد سنة ثمان وأربعين وخمسمائة (١١٥٣ م) وهو بخوزستان يستدعيه ، فسار محمد إليه ، فلما وصل أجلسه على عرش السلطنة ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٤٧ هـ .

وخطب له، وخدمه وبالغ فى خدمته ،وحمل له هدايا عظيمة جليلة المقدار ، غير أن السلطان محمدا توجس خيفة منه ، فدبر مؤامرة لقتله ، وتمكن ملكشاه من الهرب إلى خوزستان[1] .

وقد أدى عمل محمد إلى توجس سائر الأمراء خيفة منه ، وتآمرهم عليه والثورة ضده ، ومحاولتهم عزله عن عرش السلطنة فى همذان .

كما انتهز الخليفة العباسى المقتفى لأمر الله فرصة اختفاء مسعود ـ ذى الشخصية القوية ، والكلمة العليا — عن مسرح السلاجقة فحاول أن يتنفس الصعداء ، وأن يستعيد استقلاله وحريته المسلوبة ؛ فرفض ذكر اسم محمد فى الخطبة فى بغداد ، فكان هذا بداية لمنازعات انتهت بقيام حرب بين الطرفين فى عام ٥٥١ هـ (١١٥٦ م) ، وحاول الخليفة العباسى فى تلك الأثناء أن يستميل إليه بعض أفراد البيت السلجوقى ،فسمح لسليمانشاه بن محمد ـ عم السلطان محمد ـ بدخول بغداد ،وأخذ عليه العهد والميثاق بأن يلزم طاعة الخليفة ، فلا يتعرض للعراق بحال ، وخطب له ببغداد ، وخلع عليه خلع السلطنة ، وسير معه ثلاثة آلاف فارس، فتوجه سليمانشاه إلى بلاد الجبل، لقتال ابن أخيه السلطان محمد، وكان ملكشاه ابن أخى سليمانشاه يسيطر على خوزستان . فأرسل سليمانشاه إليه يدعوه الانضمام إليه ، وعينه وليا لعهده ، فقدم إليه ملكشاه فى ألفى فارس، وانضم إليهما ايلدكز أتابك آذربيجان ؛ فأصبحوا جمعاً كبيراً ، فلما سمع السلطان محمد خبرهم ، سار إليهم ، ووقعت الحرب بين الطرفين ، وقد انتهت بانتصار محمد ، وتشتت شمل سليمانشاه وصحبه ، وأراد سليمانشاه الرجوع إلى بغداد عن طريق شهرزوز ،غير أنه وقع أسيراً ، ثم حمـــل إلى الموصل وسجن فى قلعة بها .

---

(١) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٢٢٨ .

ثم أرسل السلطان محمد إلى الخليفة يطلب أن يخطب له ببغداد والعراق فامتنع الخليفة عن إجابته إلى ذلك ، فسار من همذان — في عساكر كثيرة — نحو العراق ، ووعده قطب الدين صاحب الموصل ونائبه زين الدين على بإرسال العساكر إليه نجدة له على حصر بغداد ، فقدم العراق ، واضطرب الناس ببغداد ، وأرسل الخليفة يجمع العساكر ، وجرت بين الطرفين عدة حروب دون أن يصل أحدهما إلى نتيجة حاسمة ، ثم عاودا القتال واشتدت الحرب بينهما ، اشتد الحصار على أهل بغداد لانقطاع الموارد عنهم ، وعكف محمد على حصار بغداد ، غير أن الأنباء وصلت إليه بأن أخاه ملكشاه قد تحالف مع ايلدكز حاكم بلاد أران بأذربيجان ، وأن ايلدكز جاء ومعه آرسلان بن طغرل بن محمد — وهو ابن زوجته —(١) وأنهم جميعاً قد دخلوا همذان واستولوا عليها ، فاضطر محمد إلى رفع الحصار عن بغداد ، والسير إلى همذان لمحاربتهم ، وإخماد الفتنة التى كانت تهدد عرشه تهديداً مباشراً ، واسترد السلطان نفوذه فى همذان ولكن الموت مالبث أن عاجله فى عام ٥٥٤ هـ (١١٥٩ م) .

أما المقتفى لأمر الله فقد استقر نفوذه بعد رفع الحصار عن بغداد وزوال الخطر عنه ، فكان هذا نصراً للخلافة العباسية ، لأن المقتفى لأمر الله أصبح بذلك أول من حكم مستقلا — عن سيطرة الأتراك — منذ عهد المنتصر (١) .

فلما مات محمد اختلف الأمراء فيمن يخلفه على عرش سلاجقة العراق ،

---

(١) تزوج ايلدكز أرملة السلطان طغرل الثانى وأشرف على تربية الطفل آرسلان ابن السلطان الراحل ، ثم عين السلطان مسعود ايلدكز حاكما على منطقة آذربيجان فى عام ٥٣١ هـ وسيأتى ذكر هذا بالتفصيل .

(٢) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٦٣ ؛ ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٥٥ هـ .

وانقسموا إلى ثلاثة أحزاب ؛ حزب يريد تولية أخيه ملكشاه ، وحزب يرغب في تولية عمه سليمانشاه وكان أكثر عدداً ، وحزب يميل إلى تولية آرسلان ابن طغرل .

أما ملكشاه فإنه سار من خوزستان وتوجه إلى إصفهان فدخلها ، ثم أرسل إلى الجند في همذان يدعوهم إلى طاعته ، فلم يجيبوه إلى طلبه ؛ لأن أكثرهم كان يريد سليمانشاه ، ولما كثر جند ملكشاه أرسل إلى بغداد يطلب أن تقطع خطبة عمه سليمانشاه ، وأن تقرأ الخطبة باسمه وإلا قصدها ، غير أن أعداء ملكشاه نجحوا في تدبير مؤامرة ضده وتخلصوا منه بدس السم له ، فمات في عام ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) ، وقرئت الخطبة في إصفهان باسم سليمانشاه ، واستقر حكمه في أكثر أجزاء دولة سلاجقة العراق ، غير أنه لم يكن بالشخص الذى يستطيع تصريف مهام الدولة بحكمة وتدبر ؛ فقد شغل وقته باللهو والمجون مما جعل الأمراء يفكرون في تولية غيره ، وانتهى الأمر بتدبير مؤامرة ضده ، فقبض عليه في همذان في سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) ، وحبس في قلعة ، ثم دس السم له ومات في ربيع الآخر من عام ٥٥٦ هـ (١١٦٠ م)[1] . وأرسل الأمراء إلى ايلدكز — حاكم أران وأكثر بلاد آذربيجان — يطلبون منه الحضور ومعه ابن زوجته آرسلان بن طغرل بن محمد ، فسارا يلدكز إليهم على رأس جيش كبير ، يرافقه آرسلان ، ونزلا بدار المملكة في همذان ، وخطب لآرسلان بالسلطنة في تلك البلاد ، واتخذ آرسلان ايلدكز أتابكا له ، وابنه محمد جهان بهلوان حاجباً ، وكان البهلوان هذا أخا السلطان لأمه ، ثم تحالف ايلدكز مع اينانج حاكم الرى ، وزوج ابنه البهلوان بابنة اينانج ، وعاشت معه في همذان .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٥٦ هـ .

وطبيعي أن يصبح ايلدكز منذ ذلك الوقت مهيمناً على جميع مرافق الدولة ، يتصرف في كل الأمور برأيه ، أما آرسلان فقد صار رمزاً يملك ولا يحكم [١] ، وإن كان ايلدكز قد استطاع بكفاءته ، وحسن تدبيره ، ومساعدة ابنيه — محمد جهان پهلوان وعثمان قزل آرسلان — أن يرد كيد الأعداء وينتصر عليهم [٢] .

* * *

ازدياد نفوذ الأتابكة :

وهكذا ظهرت على مسرح الدولة السلجوقية قوة جديدة هي قوة أتابكة آذربيجان بزعامة ايلدكز ، الذي كان عبداً مملوكاً للسميرمي وزير السلطان مسعود ، ثم ساعدته شخصيته المرحة على الوصول إلى حضرة السلطان في صورة مضحك ونديم له ، ثم صار ضابطاً ، ثم عهد إليه بتربية الطفل آرسلان ابن طغرل الثاني ، فصار في درجة أتابك ، ثم لم يلبث أن تزوج أرملة السلطان طغرل الثاني ، فعينه السلطان مسعود والياً على منطقة آذربيجان في عام ٥٣١ هـ (١١٣٦ م) فأسس أتابكية عرفت باسم « أتابكية آذربيجان » أصبح الحكم فيها متوارثاً بين أبناء ايلدكز وأحفاده من بعده ، وكان الواحد منهم يتخذ لقب « أتابك آذربيجان » وظلت أتابكية آذربيجان قائمة أكثر من تسعين عاماً إلى ان سقطت في عام ٦٢٢ هـ (١٢٢٥ م) .

وقد استطاع ايلدكز أن يتدخل في توجيه سير الأحداث في دولة سلاجقة العراق منذ عصر السلطان محمد — كما مر — إلى أن تمكن من

---

(١) حمدالله مستوفي قزويني : تاريخ گزيده ، ص ٤٧٠ .

(٢) محمد بن إبراهيم : تاريخ سلجوقيان كرمان ، ص ١٥ ؛ كرماني : تاريخ أفضل ، ص ٤٣ .

إجلاس ابن زوجته آرسلان بن طغرل على عرش السلاجقة فى العراق ، مما مكنه من الإمساك بزمام الامور فى يده ، فاتخذ لقب « الأتابك الاعظم » .

وأصبحت وظيفة الأتابك الأعظم ، أرفع قدرا ، وأوسع نفوذا من وظيفة أتابك آذربيجان » لأنها تهيء لشاغلها أن يشرف على الجيش وعلى أعمال الوزير وحكام الأقاليم أى أن يصير الحاكم الحقيقى الذى تغلب شخصيته على شخصية السلطان ، مما جعل ابنيه جهان پهلوان وقزل آرسلان يفضلان هذه الوظيفة على وظيفة « أتابك آذربيجان » ويحرص كل منهما — فى دوره — على توليها بعد وفاة والدهما ايلدگز .

وكان تدخل أتابكة آذربيجان فى توجيه سير الأمور فى دولة سلاجقة العراق عاملا من عوامل إسقاط هذه الدولة ، كما سيأتى .

كما برز غيرهم من الأتابكة وحكام الأقاليم وأمراء الجيش على المسرح بقوة ، وأخذوا يستعينون بأبناء السلاطين كأدوات يستعملونها فى وقت الضرورة ، وقد قضى ايلدگز ردحاً طويلا من الزمن يحارب الأمراء حتى أصبحت شخصيته أكبر شخصية فى العراق وكردستان وآذربيجان ، وصار هو الحاكم الفعلى ، أما آرسلان فلم يكن له إلا الاسم ؛ تقرأ باسمه الخطبة ، وتضرب باسمه السكة [١] ، فكان ايلدگز هو القوة التى لها خطرها فى الدولة السلجوقية .

وقد ظل نفوذ ايلدگز قوياً طوال مدة حياته حتى توفى فى عام ٥٦٨ هـ (١١٧٢ م) ، فاحتل ابنه جهان پهلوان مكانه ، وخلفه فى نفوذه ، فسيطر على دولة سلاجقة العراق ، وغلبت شخصيته على شخصية أخيه السلطان آرسلان الذى آثر الانزواء حتى توفى فى عام ٥٧١ هـ (١١٧٥) [٢] . وقيل إن أخاه

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٥٦ هـ ، ٥٥٧ هـ ، ٥٦٣ هـ .

(٢) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٣٠١ .

جهان پهلوان سمه ليتخلص منه ، ويولى مكانه ابنه الطفل طغرل (٣) ، ويبدو أن هذا هو الصحيح ، لأن الأحداث التالية تبين أنه أى طغرل أيقن لما كبر أن والده لم يمت ميتة طبيعية فأثر هذا فى سلوكه .

وقد خلف طغرل أباه ، وكان طفلا فى السابعة من عمره فلم يكن له حول ولا طول ، وتركزت السلطة فى يد عمه محمد جهـــان پهلوان ابن ايلدكز ، فبلغت قوة جهان پهلوان بذلك درجة جعلت الحكام الآخرين يرهبون جانبه ، ويرسلون السفراء إلى بلاطه (١) .

وقد تمكن جهان پهلوان بفضل قوته وشجاعته ، ومساعدة أخيه قزل آرسلان من أن يصد خطر عدوين فى وقت واحد ؛ أحدهما ملك الأبخاز الذى أغار على آذربيجان ، والآخر محمد بن طغرل بن محمد بن ملكشاه عم السلطان طغرل الثالث ، وقد أغار محمد هذا على العراق (٢) ولكن جهان پهلوان رده خائبا وبذلك توطدت دعائم سلطنة طغرل بن آرسلان .

• • •

تطور الأحداث خارج الدولة :

وكانت الأحداث خارج دولة السلاجقة قد تطورت تطورا فى صالح المسلمين بصفة عامة ، وأهل السنة بصفة خاصة ، فقد تمكن صلاح الدين يوسف من أن يسقط دولة الفاطميين فى عام ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) ، فأمر بقطع الخطبة للعاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، وبأن يخطب للخليفة العباسى المستضىء ، وقد تم له ذلك دون عناء أو اضطراب (٤) ، وبذلك أحل المذهب السنى فى مصر محل

---

(١) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ص ٣٠١ .
(٢) صدر الدين الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ١٧٢ .
(٣) مير خواند : روضة الصفا (الجزء الرابع) .
(٤) أبو الفدا : ج ٣ ، ص ٥٣ .

المذهب الشيعى ، فحقق أمنية كان يتوق إليها أهل السنة فى إيران والعراق والشام وغيرها من بلاد الإسلام .

ثم صمم على مواصلة الجهاد والحرب ضد الصليبيين . وكان هذا العمل يعد الهدف الأسمى فى نظره ، غير أنه رأى أنه لابد له من السيطرة على سورية الإسلامية أولا ، فانتهز فرصـــة وفاة حاكمها نور الدين فى عام ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م) ؛ وأعلن استقلاله بمصر ، ثم حارب اسماعيل بن نور الدين وتمكن من وضع يده على سورية ، كما أفلح أخوه توران شاه فى الاستيلاء على اليمن — فى الوقت نفسه — وبلغ نفوذ صلاح الدين بلاد الحجاز ، ولم يلبث الخليفة العباسى — فى عام ٥٧١هـ / ١١٧٥ م — أن أقره على حكم مصر والمغرب والنوبة وغربى الجزيرة العربية وفلسطين وسورية الوسطى ، وبذلك تفرد بالسلطنة [١] ، ثم تمكن فى عام ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) من إخضاع الموصل وإدخال أمراء العراق تحت نفوذه ، وبذلك أحاط بالصليبيين وحصرهم بين شقى رحى أحدهما سورية والعراق ، والآخر مصر .

وتفرغ صلاح الدين بعد ذلك لقتال الصليبيين ، فاستولى على طبرية فى عام ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) ، ثم تلتها موقعة حطين ، وقد انتصر فيها صلاح الدين انتصاراً باهراً حاسما ، فقد استسلمت بيت المقدس بعده بأسبوع ، ودانت له بسقوطها أكثر المدن التى كانت فى أيدى الصليبيين فى سورية وفلسطين ، وسقطت أغلب القلاع بعد سلسلة من المحاولات الباهرة التى شنها صلاح الدين فلم ينته عام ٥٨٥ هـ (١١٨٩) إلا بعد أن سقطت أخطر معاقل الصليبيين التى كانت أشواكا فى جنب جيوش المسلمين [٢] .

---

(١) أبو الفدا جـ ٣ ، ص ٦ .

(٢) حتى وجرجى وجبور : تاريخ العرب ، ج ٣ ، ص ٧٦٦ — ٧٦٧ .

وكادت هزيمة الصليبيين تؤدى إلى جلائهم التام ، لولا تحمس ملوك أوروبا وعلى رأسهم فردريك بربروسا امبراطور ألمانيا ، وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا ـ لإعادة فتح بيت المقدس ـ وبمجىء الحملة الصليبية الثالثة التى تمكنت من فتح عكا فى عام ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) ثم تم الصلح بين الطرفين فى عام ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م) ولكن صلاح الدين توفى بعد ذلك بقليل [١] .

وكان لانتصارات صلاح الدين أثر كبير فى فل شوكة الصليبيين ، فأخذت كفة المسلمين ترجح منذ ذلك الحين ، وانتهى الأمر بطرد الصليبيين .

• • •

وقد حاول صلاح الدين — فى عام ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) — أن يحطم قلاع الاسماعيلية فى قزوين وبسطام ودامغان وأن يقضى على قوتهم ، فانتهز فرصة وصوله إلى الموصل ، والتمس من جهان پهلوان أن يسمح له بالمرور فى الأراضى الخاضعة لنفوذه ، حتى يصل إلى هذا الهدف ، ولكن جهان پهلوان خشى أن يشجع هذا صلاح الدين على غزو العراق ، فلم يسمح لصلاح الدين بالمرور فى أراضى سلاجقة العراق ، ووقف فى طريقه ، وانتهى الأمر بالصلح بين الطرفين [١] .

ثم مرض جهان پهلوان بعد ذلك مباشرة ، ولم يلبث أن توفى فى أوائل

(١) ارجع فى تفاصيل ذلك إلى ابن خلدون ج ٥ ، ص ٣٢١ ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ١٩٠ ، الإصفهانى ، الفتح القسى فى الفتح القدسى ، ص ٣١٨ ، ابن العبرى ، ص ٣٨٦ — ٣٨٧ ، أبو الفدا ، ج ٣ ، ص ٨٢ — ٨٤ .

(٢) ذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٥٨١ هـ أن صلاح الدين كان يحاصر الموصل فعلم بوفاة شاه أرمن ملك خلاط ففكر فى الاستيلاء عليها وسار إليها فى الوقت الذى توجه جهان پهلوان فيه للقيام بنفس المهمة ، ثم ترددت الرسل بين الطرفين وتم الصلح بينهما وخطب لجهان پهلوان فيها .

عام ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م)، وكان إلى آخر لحظة من حياته يسيطر على بلاد الجبل والري وإصفهان وآذربيجان وأرانية، وكان السلطان طغرل بن آرسلان معه والخطبة له في هذه البلاد بالسلطنة، وليس له من الأمر شيء، وإنما البلاد والامراء والاوا بحكم البهلوان [٢]، فلما مات خلفه في النفوذ أخوه عثمان قزل آرسلان وكان طغرل قد صار شاباً في الثامنة عشرة من عمره، وعلم بحقيقة ما حدث لوالده آرسلان، فلم يقبل نفوذ عمه قزل آرسلان، وانضم إليه كثير من الأمراء والجند، كما تدخل الخليفة العباسي الناصر لدين الله لنصرة قزل آرسلان، فبدأت بين الطرفين سلسلة من الحروب، وانتشرت الفتنة في البلاد بعد أن كانت آمنة مطمئنة في عهد جهان پهلوان، كما شبت نيران فتنة مذهبية في إصفهان بين الشافعية والحنفية وكثر القتل والإحراق والنهب بين الفريقين مما يجل عن الوصف، وحدثت فتنة عظيمة في الري بين أهل السنة والشيعة، فتفرق أهلها وقتل منهم عدد كبير، وخربت المدينة وغيرها من البلاد، وعمت الفوضى جميع الأرجاء، فظهرت بوادر انهيار دولة السلاجقة بالعراق.

---

(٢) ابن الأثير: الكامل حوادث سنة ٥٨٢ هـ.

الفصل التاسع

انهيار دولة سلاجقة العراق

بدأ الستار ينزل على دولة سلاجقة العراق بعد موت جهان پهلوان ، فقد انتشرت فيها الفتن وعمت كثيراً من أنحاء البلاد ـ كما ذكرنا ـ وكان قزل آرسلان قد خلف أخاه جهان پهلوان فى السلطنة ، وعزم على الرحيل إلى همذان مقر السلطنة لتسيير دفة الأمور (١) .

ولكن ابن أخيه السلطان طغرل الثالث ، كان قد أصبح شابا ، فأراد أن يتخلص من سيطرة عمه ، فقامت المنازعات بين الطرفين ، وانضم كثير من الجند و الأمراء إلى السلطان طغرل فقوى أمره ، وكثر جمعه ، ووضع يده على كثير من البلاد ، فأرسل قزل آرسلان إلى الخليفة العباسى الناصر لدين الله يستنجده ويخوفه من طغرل ، ويبذل من نفسه الطاعة والتصرف على ما يختارونه (٢) ، فأمده الخليفة بجيش وصل إلى همذان قبل وصوله هو ، فاضطر الجيش إلى القتال وحده ، مما أدى إلى هزيمته فى عام ٥٨٣ هـ (١١٨٧م) ، فرجع مدحوراً (١) .

---

(١) أمير خواند : روضة الصفا (الجزء الرابع) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٨٣ هـ

(٣) صدر الدين الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ١٧٧ ، وقد ذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٥٨٤ هـ أن الخليفة الناصر لدين الله جهز عسكراً كثيراً وسيرهم إلى مساعدة قزل آرسلان ليكف الناس طغرل عن البلاد فسار العسكر ثالث صفر إلى أن قارب همذان ، فلم يصل قزل إليهم ووصل طغرل إليهم فالتقوا ثامن ربيع الأول بداىمرج عند همذان واقتتلوا فلم يثبت عسكر بغداد بل انهزموا وتفرقوا وعاد العسكر إلى بغداد متفرقين ويبدو أن ابن =

ولما انتصر طغرل على جيش الخليفة ارتفعت أسهمه ، فأعلن علاء الدين حاكم مراغه الولاء له ، وتوجه إلى همذان لتقديم فروض الطاعة له ، فأكرمه طغرل وأودع لديه ابنه الصغير بركيارق (١) .

وعاود قزل آرسلان التحرك صوب همذان فى أوائل عام ٥٨٤ هـ (١١٨٨م) على رأس جيش كبير كما جهز الخليفة العباسى جيشاً آخر وصل إلى همذان واستولى عليها فى العام نفسه ؛ فتركها طغرل وتوجه إلى آذربيجان فوصل إلى تبريز ، بينما وصل قزل آرسلان إلى كرمانشاهان فلما علم برحيل طغرل إلى آذربيجان تبعه ، فرجـــع طغرل إلى همذان . وهكذا ظل طغرل فى اضطراب (٢) وتنقل ؛ وأخذ الأمراء يتآمرون ضده ، فضعفت قوته ، ولم يجرؤ على دخول همذان عاصمة ملكه ، فأخذ يطوف حولها دون أن ينزل بها ، وغلبت قوة قزل آرسلان ، وتحرك فى صفر سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م) من آذربيجان قاصداً همذان ، ولم تكن لطغرل طاقة الوقوف فى وجهه (١) .

وبدأ نجم قزل آرسلان فى الارتفاع ، وأخذ الرسل يفدون عليه من الأطراف معلنين التأييد له ، وأقبل جيش العراق من دار الخلافة لتأييده وأخذ ، نجم طغرل ودولة سلاجقة العراق فى الأفول ، وتوجه جيش الخلافة إلى همذان فى رمضان من عام ٥٨٦ هـ (١١٩٠ م) ، واستولى عليها ، وتصادف وجود

= الأثير يشير إلى هذه الواقعة التى ذكرنا أنها كانت فى عام ٥٨٣ هـ ، ويفهم من كلام راحة الصدور أن هذه الوقعة كانت فى أواخر عام ٥٨٣ هـ لأن الواقعة التى تلتها كانت فى المحرم من عام ٥٨٤ هـ (الراوندى راحة الصدور حواشى ص ٣٤٧) .

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٣٤٧ .

(٢) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٣٤٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٥٥ وما بعدها ، وحواشى ٣٥٥ .

طغرل بها ، فوقع أسيراً فى أيدى رجال الجيش (١) ، ودخل قزل آرسلان العاصمة ، ثم سجن طغرل فى قلعة بآذربيجان (٢) .

وهكذا خلا الجو لقزل آرسلان وتوجه إلى همذان مقر الحكم وأخذ يبحث عن سلطان رمزى من السلاجقة يجلسه على عرشهم فى العراق ، واتجه تفكيره إلى سنجر من سليمان شاه ، فأخرجه من السجن ليجلسه على العرش ، ووزع الإقطاعات على الأمراء ثم توجه إلى أصفهان ، وتزوج بالخاتون زوجة أخيه جهان بهلوان ، فتهيأت له جميع أسباب العظمة ، ولاحت عليه مخايل الملك ، ولم يلبث أن وصلته رسالة من الخليفة العباسى تظهر رضاه وموافقته على أن يلى قزل آرسلان نفسه عرش السلطنة ، فأعلن نفسه سلطاناً فى عام ٥٨٧ هـ (١١٩١) (٣)

وأصبح واضحاً أن بساط سلاجقة العراق قد طوى كما طوى بساط سلاجقة المشرق من قبل .

غير أن أمراء العراق حقدوا عليه هذه المنزلة (٤) ، وخشوا أن يفتك بهم ، كما أن زوجته الجديدة تعاونت معهم (٥) ، ويقال إنها كرهته لسوء سلوكه ، وانصرافه عنها ، فأخذت تدبر مع ابنها قتلوغ إينانج بن جهان بهلوان وسيلة لقتله (٦) وهكذا تعاونت زوجته مع أمراء العراق ودبر الجميع مؤامرة لقتله ، وأرسلوا إليه من قتله وهو نائم على فراشه (٧) .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٦٢ وحواشيها ؛ حمد الله : تاريخ گزيده ، ص ٤٧٥ .
(٢) صدر الدين الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ١٧٨ — ١٨١ ، تاريخ ابن الوردى ص ١٠٠ .
(٣) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٣٦٣ .
(٤) أميرخوانند : روضة الصفا (الجزء الرابع) .
(٥) نفس المرجع والصفحة .
(٦) هذا ما ذكره الحسينى فى أخبار الدولة السلجوقية .
(٧) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٨٧ هـ .

وكانت الدولة حينذاك تموج بفتن كثيرة متنوعة ، فلم يعرف قتلته على وجه التحديد فكما رجح أن زوجته وأمراء العراق دبروا مؤامرة لقتله كما مر ، قيل إنه قتل بسبب اضطهاده للشافعية وقتله كثيراً من مشايخهم لأن نزاعاً ثار فى ذلك الوقت بين الشافعية والحنفية فى إصفهـــان ، كما اتهم الإسماعلية بقتله [١] .

ولكن المرجح أن زوجته هى التى دبرت مؤامرة لقتله حتى تهىء الفرصة لابنها قتلوغ اينانج بن البهلوان ليحل محله ويمسك بزمام الأمور فى دولة سلاجقة العراق .

ومهما يكن من شىء ؛ فإن هذا يدل على أن قوة أتابكة آذربيجان قد بلغت حداً جعلتهم جديرين بتولى عرش السلطنة ، وأن سلاجقة العراق كانوا ضعافاً يتلاعب بهم الأتابكة وحكام الأقاليم كالدمى ، فيضعونهم على العرش وقتما يشاءون ، ويرفعونهم عنه حينما يريدون .

ولما اختفى قزل آرسلان من فوق المسرح ، أصبح الأمراء سادة الموقف ، فأخذوا يقسمون النفوذ بينهم ، وأخذ نفوذ الأتابكة يقل تدريجياً ، حقيقة أن نصرة الدين أبا بكر بن جهان بهلوان قد خلف عمه قزل آرسلان فى النفوذ إلا أنه اكتفى بحكم آذربيجان ؛ بينما اقتسم أمراء العراق وأخوه قتلغ إينانج حكم العراق ، وأخذت المنافسة بين الأخوين تظهر بصورة قوية ، فشبت الحروب بينهما دون انقطاع حتى روى أنها شبت أربع مرات فى شهر واحد [٢] .

---

(١) تاريخ البناكتى (القسم الرابع) .

(٢) أمير يحيى القزوينى : لب التواريخ (الجزء التاسع) ، خواندامير : حبيب السير ، ١٠٧ .

وشغل أمراء العراق بالمغانم ، فتمكن السلطان طغرل من الخروج من الحبس وتعاون مع بعض الأمراء فجمع جيشاً حارب به الأمراء وابن عمه قتلغ اينانج بالقرب من قزوين وانتصر عليهم ، ثم توجه إلى مقر حكمه فى همذان حيث جلس على العرش (١) ، وأقره على ذلك كثير من حكام الأطراف ، فاسترد عرشه المغصوب ، وتفرق أمراء العراق وهاموا على وجوههم ، فتوطدت دعائم سلطنة طغرل إلى حدما ، ولم يبق أمامه إلا أن يقضى على ابن عمه قتلوغ إينانج الذى كان قد تحصن فى مدينة الرى ، واستعان بتكش حاكم خوارزم ، فأمده بجيش فاستولى على مدينة الرى وسيطر على قلعه طبرك ، فتوجه السلطان طغرل إلى الرى وحاصر هذه القلعة واستولى عليها وخربها وأخمد الفتنة فيها وقتل قائد جيش خوارزم ، وأسر أمراءه وكان ذلك فى سنة تسع وثمانين وخمسمائة (١١٩٣ م) . ثم رجع إلى عاصمته همذان (٢) .

ولكن الجيش الخوارزمى عاود مهاجمة الرى . ودارت بينه وبين جيش طغرل معركة عنيفة بالقرب من الرى فى الرابع من المحرم سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٣م) انتصر فيها جيش طغرل ، وانهزم جيش خوارزم هزيمة نكراء وقتل كثير من قواده (٣) .

وكان السلطان قد تزوج من الخاتون زوجة عمه جهان پهلوان ، ولكن رجاله لم يلبثوا أن خوفوه منها ، وقالوا له إنها تدبر مؤامرة لقتله كما فعلت

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٣٦٤ وحواشيها ، ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٨٨ هـ .

(٢) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٣٦٦ .

(٣) نفس المرجع والصفحة وحواشيها .

مع عمه قزل آرسلان بغية التخلص منه [1] أتهيء الفرصة لابنها قتلوغ اينانج ابن جهان پهلوان ، فدس طغرل لها السم وتخلص منها ، فأثار بذلك حمية ابنها الذى استعان بعلاء الدين تكش حاكم خوارزم — وكان قد استعان به منذ عام ٥٨٨ هـ (١١٩٢ م) — فأمده بجيش استولى على الرى كما ذكرنا .

ففكر طغرل فى أوائل عام ٥٩٠ هـ (١١٩٣ م) فى تفقد أجزاء دولته خشية أن يعاود الجيش الخوارزمى مهاجمة بلاده فتوجه إلى الرى فى المحرم من هذا العام ، ففر قتلوغ إينانج ، وأرسل إلى حاكم خوارزم يدعوه لمساعدته .

ووافق ذلك وصول رسول الخليفة العباسى إلى حاكم خوارزم يشكو من طغرل ويطلب منه قصد بلاده ومعه منشور بإقطاعه البلاد فسار من نيسابور إلى الرى فتلقاه قتلوغ اينانج ومن معه بالطاعة [2] ، وساروا معه فلما سمع السلطان طغرل بوصوله ، أسرع للقائه قبل أن يستجمع كل قواته ودارت بين الطرفين معركة عنيفة بالقرب من الرى من العام نفسه ، وحمل طغرل بنفسه فى وسط عسكر خوارزم فأحاطوا به وألقوه عن فرسه وقتلوه [3] . ويقال إن قتلوغ اينانج ابن عمه هو الذى قام بقتله وقطع رأسه [4] وإرسالها إلى بغداد ثم سار تكش الخوارزمى إلى همذان فوصل إليها واستولى عليها وجلس على عرش السلاجقة [5] ، فكان هذا إيذاناً بانهيار سلاجقة العراق ، ثم لم يلبث

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٣٦٧ وحواشيها .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٩٠ هـ .

(٣) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٣٧١ ، ويذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٥٩٠ هـ أن ذلك كان فى ربيع الأول لا فى جمادى الآخرى .

(٤) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٣٠٢ ؛ الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ١٧٢ — ١٧٦ .

(٥) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٣٧٥ .

تكش أن استولى على مملكة العراق جميعها ، فملك تلك البلاد ، وأقر الخليفة الناصر لدين الله العباسي هذا الوضع ، ثم أسند حكم إصفهان إلى قتلوغ إينانج وأقطع كثيراً من بلاد تلك الأقاليم لمماليكه [1] وهكذا ظل معسكر سلاجقة العراق زاخراً بالمنازعات والحروب حتى دالت دولتهم على يد الدولة الخوارزمية التي استولت على ممتلكاتها في الشرق والغرب ، وصارت أكبر قوة في إيران والعراق .

والواقع أن تاريخ السلاجقة كان مليئاً بالأحداث التي كانت تتلاحق في صور متتابعة في جميع المناطق التي بسطوا نفوذهم عليها وكانت الأحداث السياسية تطغى على غيرها من الأحداث ، وتجعل الدارس ينصرف إلى تتبعها ، ويغطى تتبعه لها على تتبعه لغيرها من الأحداث الأخرى التي تكشف مظاهر الحضارة المختلفة في عصرهم وتلقي الضوء على ألوان النشاط البشري الأخرى ، وأن نختم دراستنا لتاريخ السلاجقة قبل التعريف بمظاهر الحضارة في عصرهم

(١) نفس المرجع والصفحة ، واقرأ راسرفيلاء زنكش على العراق ، ص ٣٧٥ — ٤٠٣ ؛ ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٩٠ هـ .

الفصل العاشر

مظاهر الحضارة فى العصر السلجوقى

كان لسيطرة السلاجقة على إيران والعراق وآسية الصغرى (بلاد الروم) والشام آثار واضحة فى مختلف ألوان النشاط البشرى فى هذه البلاد ، وظهرت هذه الآثار فى جوانب الحضارة فى عصرهم ، بحيث يستطيع الدارس أن يتبينها فى النواحى السياسية والإدارية والدينية والاجتماعية والفنية .

وقد كان السلاجقة بدوا ، ليست لهم سابقة حضارية عريقة أو راقية ، كما كان أكثر أفراد القبائل السلجوقية وبعض سلاطين السلاجقة أميين لا يعرفون القراءة والكتابة ، فلا يستوعبون العلوم والمعارف السائدة فى عصرهم .

وبرغم أن السلاجقة سيطروا على مساحات شاسعة من الأراضى ، وأخضعوا شعوبا كثيرة لحكمهم ، فإن غلبتهم كانت بقوة السيف ، بينما كانت الشعوب المغلوبة ذات حضارة راقية ، وكانت متقدمة فى العلوم والفنون المختلفة ، فغلب السلاجقة هذه الشعوب ماديا ، وغلبوا منها معنويا ، فواصلت الشعوب التى خضعت لحكم السلاجقة سيرها الحضارى وأثرت بداوة السلاجقة وأميتهم فى بعض ألوان النشاط البشرى ، فأثرت بداوة السلاجقة فى نظم الحكم وفى حبهم للفنون الجميلة ورعايتهم لها .

وأثرت أمية السلاجقة فى استعانتهم بكثير من الموظفين بحيث صارت طبقة الموظفين فى عصرهم من أهم طبقات المجتمع ، وكانت وظيفة الوزير

أعلى وظيفة فى الدولة بعد السلطان ، مما جعلها مجالا للتنافس والتنازع بين الطامعين فيها من الموظفين ، كما أثرت أمية السلاجقة فى العلوم والآداب فأحدثت أثراً عكسياً ، فوجدنا السلاجقة يعوضون هذا النقص بالاهتمام بالعلوم والآداب وتشجيع العلماء والشعراء والكتاب ، فازدهرت العلوم والآداب فى عصر السلاجقة بصورة واضحة لفتت أعين الدارسين .

وسنعرض فى هذا الفصل صوراً من الحضـــارة فى العصر السلجوقى ، للتعريف بأهم مميزات هذه الحضارة .

١ — الناحية السياسية

نظم الحكم

السلطنة :

قسم السلاجقة دولتهم — منذ إنشائها — إلى أقاليم ، وعينوا على كل إقليم من أقاليم الدولة حاكما ، كانوا يختارونه — غالبا — من أفراد البيت السلجوقى ، ويطلقون عليه لقب « الملك » (شاه) ، ثم اختاروا رئيسا أعلى للدولة ، تدين له جميع الأقاليم بالطاعة والولاء ، وأطلقوا على الرئيس الأعلى لقب « السلطان » ومعنى ذلك أن السلطان كان أعلى منزلة من الملك ، أى كان بمثابة ملك الملوك ، يخضع لنفوذه حكام الأقاليم ، وتنفذ كلمته فى جميع أنحاء الدولة .

وقد اتبع السلاجقة هذا النظام منذ بداية دولتهم إلى نهايتها ، أى منذ عهد طغرل الأول [١] المؤسس الحقيقى لدولة السلاجقـــة إلى أن أسدل الستار على دولتهم .

---

(١) الراوندى . راحة الصدور ، ص ١٠٤ .

وكان حاكم كل إقليم يستقل بإدارة إقليمه ، فلا يتدخل أحد فى شئون إقليمه الداخلية ، كما كان لكل حاكم جيشه الخاص به ، وكان يتخذ وزيراً يعاونه فى إدارة الإقليم ، وكان لكل حاكم الحق فى توسيع رقعة الأراضى التى تحت حكمه ، وفتح ما يستطيع إليه سبيلا من المناطق المجاورة له ، وضمها إلى حوزته ، بشرط ألا يكون التوسع على حساب فرد آخر من أفراد البيت السلجوقى حتى لا تتصدع وحدة السلاجقة ، ولا يكون بأسهم بينهم شديدا .

وكانت سيطرة السلاطين شاملة على مختلف الأقاليم فى أوقات قوة الدولة السلجوقية ، فلما ضعفت الدولة وتجزأت ، فقد السلاطين هذه السيطرة ، وأصبح حكام الأقاليم مستقلين استقلالا تاماً فى جميع شئونهم .

ووصل بعض عبيد السلاطين إلى مناصب حكام الأقاليم وبلغ نفوذ بعضهم إلى درجة التحكم فى السلاطين أنفسهم والتدخل فى شئون الدوله السلجوقية حتى فى اختيار السلاطين وعزلهم كما رأينا .

وكانت موافقة الخليفة العباسى لازمة لكل سلطان ، حتى تكتسب سلطنته صفة شرعية أمام رعاياه ، ولذلك كان السلاطين يحرصون على الظفر بموافقة الخليفة العباسى على توليهم مناصبهم حتى فى أثناء ضعف العباسيين ، وكانوا يبذلون فى سبيل الظفر بهذه الموافقة الكثير من الأموال والهدايا ويحاولون الإبقاء على صلات الود بينهم وبين الخلفاء مهما كانوا ضعفاء ، لأن الخليفة أمير المؤمنين ، وممثل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأرض .

وكان الخليفة العباسى ضعيفا فى العصر السلجوقى ، فكان يمنح موافقته على تولى عرش السلاجقة للمنتصر من أفراد البيت السلجوقى ، وكثيراً ما أصدر الخليفة العباسى — بسبب ضعفه — قرارات يناقض بعضها بعضا كما رأينا

وكثيراً ما حمل لقب السلطنة أكثر من فرد من أفراد البيت السلجوقي في وقت واحد بموافقة الخليفة العباسي.

ولم يكن هناك نظام معين لاعتلاء عرش السلطنة في عصر السلاجقة، بل كان يعتليه أبرزهم شخصية، وأكثرهم قوة، وأعظمهم نفوذاً، وقد بدت هذه الظاهرة منذ قيام دولة السلاجقة، وظلت بادية طوال عصرهم، فقد اعتلى طغرل الأول — مثلا — عرش السلاجقة بينما كان أخوه — جغرى بك — الذي يكبره سنا — على قيد الحياة، وكان يعمل تحت إمرته، ويخضع لنفوذه كما كان جغرى بك حاكما على أقاليم خراسان وما وراء النهر من قبل طغرل الذي كان أمره نافذاً في جميع أقاليم السلطنة، لأنه كان سلطاناً قويا.

وكان النزاع يثور بين أفراد البيت السلجوقي حول عرش السلطنة عقب وفاة كل سلطان من سلاطين السلاجقة، حتى ولو عهد السلطان — قبيل وفاته بولاية العهد لأكبر أبنائه سنا، وكان الأمر ينتهي — غالباً — بتحكيم السيف، فتشتعل نيران الحرب بين المتنافسين، ويظفر المنتصر بالعرش، ويمسك بأزمة الأمور.

وكان السلطان السلجوقي يمارس سلطات واسعة، تجعله مسيطراً على الدولة سيطرة تامة، وكان يقود الجيش ويدير المعارك، ويعين حكام الأقاليم، ويعزلهم ويعاقبهم، ويفرض نفوذه على الخليفة العباسي، ويجعله يخلع عليه ألقابا؛ مثل لقب « ركن الدنيا والدين » أو « معز الدنيا والدين » أو « مغيث الدنيا والدين » مقرونا بلقب « يمين أمير المؤمنين » أو « برهان أمير المؤمنين » أو « قسيم أمير المؤمنين »[١].

---

(١) ارجع إلى راحة الصدور للراوندى في بداية تعريف كل سلطان.

وواضح أن أثر بداوة السلاجقة واضح فى نظم الحكم التى سادت فى عصرهم ، فإن السلطنة كانت شبيهة برئاسة القبيلة ، فكان يظفر بها من هو أعظم قوة وأشد بأسا ، فلا تحكمها مبادىء ثابتة أو قوانين معينة .

وكانت النزعة القبلية مسيطرة على سلاطين السلاجقة فى أكثر تصرفاتهم ولعل ما فعله السلطان ألب آرسلان مع القائد المتمرد يوسف الخوارزمى أوضح مثال على غلبة النزعة القبلية على تصرفات سلاطين السلاجقة ، فقد أمر — بعد الانتصار عليه وأسره على قتله بيده بإطلاق سهم عليه ، وكلف هذا التصرف ألب آرسلان حياته حين طاش السهم الذى ألقاه ، فهجم عليه القائد الأسير وطعنه بسكين ، فمات متأثراً بجراحه ، كما رأينا .

وقد أصبحت السلطنة درجتين فى إيران والعراق فى عهد سنجر السلجوقى فكان سلاجقة العراق يحملون لقب السلطان فقط بينما كان سنجر — الذى كان مقر حكمه فى خراسان يحمل لقب السلطان الأعظم ، ويلزم سلاطين سلاجقة العراق بطاعته ، وظل هذا النظام متبعا طوال عهد سنجر ، وصار كثير من الدارسين يقسمون السلاجقة إلى سلاطين عظام وسلاطين فقط .

ومهما يكن من شىء فإن بداوة السلاجقة انعكست فى نظم حكمهم ، وفى مفهوم السلطنة عندهم .

. . .

الوزارة :

كان منصب الوزارة أهم المناصب فى الدولة السلجوقية بعد منصب السلطان فقد كان الوزير يرأس جميع رجال الديوان ، ويشرف على جميع أعمال الدولة

ويخضع له موظفوها مما يجعل الوزير ذا نفوذ كبير في الدولة ، يمكنه من توجيه سياستها في الداخل والخارج .

وكانت سلطة الوزير تمتد إلى الولايات المختلفة ، ولا سيما إذا كان الوزير قويا ، نافذ الكلمة في الدولة . وكثيراً ما كان الوزير يتدخل في حكم الولايات ويقوم بإسناد حكمها إلى الأمراء وقواد الجيش [١] الموالين له .

ومنصب الوزارة مقتبس من نظام الحكم الفارسي قبل الإسلام . وقد اقتبس العباسيون هذا النظام عن الفرس ؛ لأن دولتهم قامت بمساعدتهم . فتقلد الوزارة في العصر العباسي الأول وزراء أكثرهم من الفرس .

واكتسب منصب الوزارة أهمية كبيرة في الدولة السلجوقية وغيرها من الدول التي طفت على سطح الخلافة العباسية . وكانت هذه الأهمية انعكاسا لأهمية هذا المنصب في الدولة العباسية .

وكما ساعد ضعف الخلفاء في العصر العباسي الثاني على ازدياد نفوذ الوزراء فقد كان ضعف السلاطين في العصر السلجوقي يساعد على ازدياد نفوذ الوزراء واشتداد التنافس على الوزارة . وتفشى الدس وانتشار الرشوة ابتغاء الوصول إلى كرسي الوزارة [٢] .

وكان منصب الوزير في العصر السلجوقي يقابل منصب رئيس الوزراء في العصر الحديث . وكان يسمى السيد الأعظم (خواجه بزرگ) وكان يشرف على جميع أجهزة الحكم ، فيخضع له ديوان الاستيفاء ، وديوان الأشراف وديوان الإنشاء وديوان الأوقاف وديوان عرض الجيش .

(١) الراوندي : راحة الصدور ، ص ٢٨ — ١٣٠ .
(٢) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ، ج ٣ ، ص ٢٥٠ .

وقد ألغى السلاجقة ديوان البريد برغم أهميته[1] ، وكانوا فى عملهم هذا متأثرين ببداوتهم وأميتهم ، لأن ديوان البريد كان يساعد على ربط أجزاء الدولة بعضها بالبعض الآخر ، وكان عمال البريد عيونا للسلطان والوزير ينقلون إليهما الأخبار فيحيطان علما بما يجرى فى أنحاء الدولة المختلفة .

وكان يشرف على كل ديوان من هذه الدواوين رئيس يصرف شئونه تحت إشراف الوزير ، وكان منصب رئيس الديوان يشبه منصب الوزير فى الوقت الحاضر .

والواقع أن منصب الوزير فى العصر السلجوقى كان منصبا عظيم الأهمية قوى النفوذ ، واسع الجاه ، فكانت تشتد حوله المنافسات ، وتكثر حول المضطلع به الدسائس والمؤامرات ، مما جعل القتل نهاية لكثير من الوزراء .

ويعد نظام الملك — وزير ألب آرسلان وابنه ملكشاه — أشهر وزراء السلاجقة على الإطلاق ، بل يعد من أشهر الوزراء الذين عرفهم التاريخ ، وقد بلغت سلطة الوزير فى عهد وزارته أقصى درجاتها ، فكان نافذ الكلمة ، واسع السلطة ، يقضى بأمره فى جميع الشئون ، ويطيعه حكام الأقاليم وقواد الجيش والجند ، ويحترمه السلطان ويخشى بأسه ، ولا يجرؤ على عزله ، لأن هذا الأمر قد يكون خطراً على السلطان نفسه .

وكادت الوزارة تصبح وراثية فى أسرة نظام الملك ، نتيجة لشدة حب الناس لهذه الأسرة ، ولذلك ظفر كثير من أبناء نظام الملك وأحفاده بالوزارة فأشرفوا على توجيه سياسة السلاجقـــة فى مراحل مختلفة من تاريخهم كما رأينا .

---

(١) نظامى عروضى سمرقندى : چهار مقاله ، ص ٢٣ — ٢٤ .

وقد أرشد نظام الملك إلى الطريقة المثلى فى إدارة شئون البلاد، وحكم الولايات، فى كتابه الشهير «سياستنامه»[١] الذى يعد من أهم الكتب فى نظم الحكم، لأنه رسم المنهج الصحيح للحكم بصورة ترضى رغبة الحاكم وتحقق سيطرته على الدولة، وترضى فى الوقت نفسه — مشاعر المحكومين، وتحقق لهم حياة مريحة مستقرة.

وكان النجاح الذى حققه نظام الملك فى أثناء توليه منصب الوزارة طوال ثلاثين عاما مغريا لغيره بالعمل على تولى هذا المنصب الكبير، ولذلك كثر التنافس على منصب الوزارة بعد قتل نظام الملك وموت السلطان ملكشاه وبلغ التنافس حدا جعل الطامعين فى منصب الوزارة يثيرون الفتن بين أفراد البيت السلجوقى، فكثرت الحروب بين الإخوة والأقارب، مما أدى إلى انقسام دولة السلاجقة وإضعافها، كما رأينا أثناء عرض الأحداث السياسية بعد عهد السلطان ملكشاه.

. . .

الحجابة :

كانت وظيفة الحجابة من الوظائف الرئيسية فى الدولة السلجوقية، وكان عمل الحاجب يشبه عمل الأمين بقصر الحاكم فى العصر الحاضر فهو ينظم الاتصال بين الناس والسلطان[٢]، ويعد من أهم رجال البلاط.

وكان كبير الحجاب يسمى «حاجب بزرگ» أى «الحاجب الأعظم» وكان بحكم منصبه يشرف على سير جميع الأمور التى تجرى فى البلاط، وكان

(١) أى كتاب السياسة.

(٢) ابن خلدون : المقدمة، ص ٢٠٨ — ٢٠٩

نفوذه كبيراً لاتصاله بالسلطان الحاكم اتصالا مباشراً ، وكان نفوذه يصل — أحيانا — إلى درجة التدخل فى شئون الدولة المختلفة ، وفى تعيين حكام الأقاليم .

وكان نفوذ الحاجب يتوقف على مدى صلته بالسلطان ، ويستمد من هذه الصلة ، وكثيراً ما كان الحجاب يستبدون بأمور الدولة دون الوزراء ، فكان أصحاب الدواوين يرجعون إليهم فى الأمور المختلفة ، ويعملون طبقاً لتوجيهاتهم وأوامرهم ، مما كان يحدث احتكاكا ونزاعا بين الحجاب والوزراء وكثيراً ما أصبح الحاجب هدفا لدسائس الوزير إذا زاد نفوذه ، وعظم استبداده بأمور الدولة (١) .

وقد اقتبس المسلمون — منذ العصر العباسي — وظيفة الحجابة عن الفرس ضمن ما اقتبسوه من نظم الحكم وفنون الإدارة ، ولذلك كانت الوظائف الرئيسية فى الدولة السلجوقية مشابهة تماما للوظائف الرئيسية فى الدولة العباسية فكانت الحجابة إحدى هذه الوظائف التى تلعب دوراً مهما فى إدارة الدولة وتصريف أمورها المختلفة .

. . .

الكتابة :

كان السلاجقة — كما ذكرنا — قوما تغلب عليهم الأمية ؛ مما جعلهم يستعينون بكثير من الموظفين ، وجعل طبقة الموظفين من الطبقات المهمة المميزة فى العصر السلجوقى ، وأدى إلى تعدد الدواوين فى الدولة السلجوقية ، وإلى

---

(٢) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ، ج ٣ ص ٢٦

تعيين عدد كبير من الموظفين فى هذه الدواوين، يعملون تحت إشراف رؤسائها وكان كل موظف من هؤلاء الموظفين يسمى كاتبا .

وكانت الكتابة من الوظائف المهمة فى الدولة السلجوقية ، وكان كاتب الرسائل وكاتب الخراج وكاتب الجند من أشهر كتاب الدواوين .

وكان كاتب الرسائل يختار عادة — من بين الأدباء والبلغاء المعروفين لأن عمله كان مهما متصلا اتصالا مباشرا بالسلطان ، لأنه كان يقوم بتحرير الرسائل السياسية ، والأوامر السلطانية بعد اعتمادها من السلطان ، كما كان يقوم بمراجعة الرسائل الرسمية ، ووضعها فى الصيغة النهائية ، وختمها بخاتمة كما كان يجلس مع السلطان . فى مجلس القضـــاء ، ويتولى مكاتبة الأمراء والحكام .

وقد حدد ابن خلدون الصفات التى يجب توفراها فى كاتب الرسائل فى قوله : « واعلم أن صاحب هذه الخطة لابد من أن يتخير من أرفع طبقات الناس ، وأهل المروءة والحشمة منهم ، وزيادة العلم ، وعارضة البلاغة ، فإنه معرض للنظر فى أمور العلم لما يعرض فى مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك ، مع ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل ، مع ما يضطر إليه فى الترسيل ، وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها »(١) .

والواقع أن وظيفة الكاتب بصفة عامة ، ووظيفة كاتب الرسائل بصفة خاصة كانت من الوظائف المهمة فى الدولة السلجوقية .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٩٥ .

ومن أشهر كتاب الرسائل فى العصر السلجوقى منتجب الدين الجوينى كاتب الرسائل فى عهد السلطان سنجر السلجوقى ، وقد حفظ لنا كثيرا من الرسائل والأوامر السلطانية فى كتابه المعروف « عتبة الكتبة » نستطيع أن نلم عن طريقها بكثير من الأمور التى كانت تجرى فى دولة السلاجقة ، وأن نعرف شيئا عن بعض وزراء السلاجقة وعلمائهم وكتابهم[1] . ونشاهد بعض صور الحضارة فى عصرهم .

. . .

٢ — الناحية الادارية

حكام الأقاليم :

كانت إدارة الدولة تعتمد على أساس تقسيمها إلى عدد من الأقاليم وقد كان أول عمل قام به طغرل الأول السلجوقى بعد جلوسه على العرش ، وإعلان نفسه سلطانا على دولة السلاجقة — تقسيم الدولة إلى أقاليم . وعين على كل إقليم منها واحدا من أفراد أسرته[٢] كما ذكرنا .

وقد كانت دولة السلاجقة - فى أوج قوتها - تتكون من أقاليم كثيرة أشهرها خراسان ، وما وراء النهر ، وبست وهراة وسيستان وكرمان وهمذان وأبهر وزنجان وآذربيجان والرى وإصفهان وفارس وبلاد الشام وآسية الصغرى[٣] وكان السلطان السلجوقى هو الذى يعين حكام الأقاليم . وكثيرا

(٢) أرجع إلى عتبة الكتبة لمنتجب الدين الجوينى ، طبع طهران سنة ١٣٢٩ هجرية شمسية .

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٠٤ .
(٢) كانت فى ذلك الوقت تسمى بلاد الروم .

ما كان السلطان والوزراء والحجاب يشيرون على السلطان بتعيين بعض الحكام وكان أكثر حكام الأقاليم من أفراد البيت السلجوقي ، ولذلك أصبح الحكم في أقاليمهم وراثيا، يرثه الأبناء عن الآباء، كما حدث في كرمان وآسية الصغرى والشام ، وأصبحت هذه الأجزاء مستقلة استقلالا يكاد تاما في أوقات ضعف دولة السلاجقة الرئيسية في إيران والعراق ، وصار حكام هذه الأجزاء يلقب كل منهم بلقب السلطان .

وكان حكام الأقاليم يعينون عدداً كبيراً من الموظفين لمساعدتهم ، كما كانوا يتخذون الجند، ويستعينون بالقبـــائل في تكوين الجيش التابع لكل منهم

وكان حاكم الإقليم ومن معه من الجند تحت تصرف السلطان في أى وقت يشاء، فكانت الدولة متماسكة قوية ، وظل هذا الوضع إلى نهاية عهد ملكشاه ، ثم تغير الوضع بعد موت هذا السلطان، فانعدمت الوحدة والانسجام بين أجزاء الدولة السلجوقية ، وصار حاكم كل إقليم يصرف شئون إقليمه حسبما يتراءى له .

وقد ساعد هذا النظام الإداري على ظهور أهمية المدن والثغور، وازدادت هذه الأهمية بمرور الزمن،حتى صارت لبعضها شخصية واضحة مميزة لها مقوماتها الخاصة بها ؛ مثل مدن مرو والري وإصفهان وتبريز ومراغه وگنجه ، كما أصبحت الثغور[1] تؤدي واجبا دينيا مقدسا، هو صد أعداء الإسلام عن الديار الإسلامية مما أضفى على حكامها أهمية كبيرة ، وجعل ولاة الثغور موضع تقدير المسلمين ، فمدحهم الشعراء والكتاب[2] .

---

(١) المقصود بالثغور مدن الحدود ، وكانت هذه المدن تتعرض لهجوم الأعداء أكثر من غيرها ، مما جعل أهلها يمتازون بالشجاعة والاستبسال في القتال .

(٢) ارجع في تفصيل هذا إلى كتاب نظامي الگنجوي للمؤلف ، ص ٥٨ .

والواقع أن تقسم الدولة إداريا إلى أقاليم يدير كل إقليم منها حاكم من قبل السلطان كان سلاحا ذا حدين، فقد أدى إلى تماسك الدولة وترابطها فى أوقات القوة، ولكنه — فى أوقات ضعف السلاطين — ساعد على تفككها وتمزقها وعجل بانهيارها .

. . .

الدواوين :

كانت الدواوين الأسس التى يقوم عليها النظام الإدارى فى الدولة السلجوقية المكونة من ولايات كثيرة — كما ذكرنا — وكان السلطان السلجوقى يشرف على إدارة هذه الولايات جميعها — فى أوقات قوة الدولة وتماسكها — بمساعدة وزيره ورؤساء الدواوين التابعة له .

وكان لكل ولاية ديوان يشرف على شئونها المختلفة ، وينظم الصلة بين الولاية ، والسلطة الرئيسية فى عاصمة الدولة ، كما ينظم العلاقة بين الولاية وغيرها من الولايات .

وكان كل ديوان يختص بناحية من النواحى ، وكانت أهم الدواوين فى الدولة السلجوقية ديوان الرسائل وديوان الاستيفاء وديوان عرض الجيش (١) .

وكان لكل ديوان من هذه الدواوين رئيس ، تشبه مهمته مهمة الوزير فى الوقت الحاضر ، وكان رئيس الديوان يستعين بعدد من الموظفين فى تصريف الأمور المختلفة المتصلة بالديوان .

---

(١) إقبال : تاريخ وايران ، ص ١٦٦ .

وكان ديوان الرسائل أكثر الدواوين أهمية ، لأنه كان يشرف على جميع المكاتبات الرسمية ، وينظم علاقة الدولة فى الداخل والخارج ، وكان رئيس هذا الديوان متصلا اتصالا مباشرا بالسلطان ، وكان — غالباً — المرشح الأول لتولى منصب الوزارة إذا خلا هذا المنصب .

أما ديوان الاستيفاء فكان أشبه بوزارة الخزانة ، أى أنه كان ينظم إيرادات الدولة ومصروفاتها ، ويشرف على جمع الضرائب، والأموال المستحقة للدولة ، مما جعله من أهم الدواوين التى تخدم الدولة فى أوقات الحرب ، وفى زمن السلم ،ولذلك كان رئيس ديوان الاستيفاء من أكبر رجال الدولة ،ومن الاشخاص الذين يتطلعون إلى منصب الوزارة إذا خــلا هذا المنصب ، ويسعون إلى شغله .

وكان ديوان عرض الجيش أشبه بوزارة الحربية ، لأنه كان يتولى شئون الجند ، وما يتعلق بالمسائل العسكرية ، وقد زادت أهمية هذا الديوان فى العصر السلجوقى ، بسبب كثرة الحروب التى قام بها سلاطين السلاجقة فى أوقات قوتهم ، وفى أثناء ضعفهم ، فلم يكد عصر سلطان من سلاطين السلاجقة يخلو من الحروب والمنازعات .

وقد أدت كثرة الدواوين الى استعمال كثير من الموظفين ، غير أن الإدارة السلجوقية لم تصل الى درجة تعيين الحدود الفاصلة بين هذه الدواوين بدقة ، نظراً لبداوة السلاجقة ، وتأثير النظام القبلى فيهم ، مما جعلهم لا يلمون بالنظم الإدارية إلماما كافيا ، فكانت الأعمال المنوطة بكل ديوان تتوقف على نفوذ رئيسه ؛ فاذا كان رئيس الديوان قوى الشخصية ؛ اتسع نفوذه ، وزاد تدخله فى أمور الدولة المختلفة ، وكثرت الأعمال المنوطة بالديوان الذى يرأسه.

وكان من أثر بداوة السلاجقة إلغاء ديوان البريد — كما ذكرنا — بينما كان هذا الديوان من الدواوين الرئيسية فى الدولة العباسية ، لأن صاحب البريد كان يراقب العمال ، ويتجسس على الأعداء ، فكان عيناً للخليفة ، ينقل أوامره إلى ولاته وعماله ، كما ينقل أخبار هؤلاء إليه [١] .

وقد أدى إلغاء السلاجقة لديوان البريد إلى قطع الصلة بين السلاطين وعمالهم فى الأقاليم ، فى أوقات الضعف والاضطراب .

الشرطة :

كان الشرطة من العناصر المهمة فى الإدارة ، وكان انتظام الأمور يتوقف على حسن أدائهم لأعمالهم ، وكان لكل أمير من أمراء السلاجقة حرس وأتباع يرأسهم شخص يسمى « أمير الحرس » وكان حكم المدن الرئيسية فى الدولة السلجوقية يوكل إلى شخص يسمى « صاحب الشرطة » ، وكانت مهمة هذا الحاكم الإشراف على الجند ، الذين يحافظون على النظام ، ويعملون على استتباب الأمن .

وكانت وظيفة صاحب الشرطة من الوظائف الإدارية ذات الأهمية فى الدولة السلجوقية ، مما جعل الدولة تنفق بسخاء على رجال الشرطة ، وتمنحهم من الرواتب ما يكفيهم للعيش الرغيد .

وكانت الحكومة المركزية فى حاضرة الدولة تعتمد اعتماداً كبيراً على صاحب الشرطة فى إقرار الأمن ، وحفظ النظام وقمع الفتن ، وإجراء القانون فى أنحاء الدولة المختلفة .

---

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ، ج٣ ص ٢٧٢ .

وقد اقتبس السلاجقة الاهتمام بالشرطة من العباسيين الذين كانوا يختارون صاحب الشرطة من علية القوم ، ومن أهل العصبية والقوة[١] وكان الأصل فى عمل الشرطة إقامة الحدود ، وتنفيذ أحكام الجرائم ، ثم اتسع عمل رجال الشرطة حتى أصبح الإشراف على استتباب الأمور فى الدولة ، فكانوا يكلفون بإقرار الأمن فى الداخل كما كان رجال الجيش يكلفون بصد أعداء الدولة ، ومحاربة مخالفى السلطان .

• • •

٣ ـ الناحية الدينية

كان لبداوة السلاجقة أثر واضح فى حبهم للدين ، وتمسكهم بالمذهب السنى ، الذى اعتنقوه قبل أن يؤسسوا دولتهم ، مما جعلهم يحبون رجال الدين ويحترمونهم ، وقد ذكرنا أن طغرل الأول مؤسس الدولة السلجوقية لما فتح مدينة همذان ، أظهر احتراماً كبيراً لرجال الدين وفى مقدمتهم شيوخ الصوفية لأن سوق التصوف كانت رائجة حين قامت دولة السلاجقة .

ومما يجدر ذكره أن الفرق الإسلامية كانت كثيرة فى العصر السلجوقى كما أن المنازعات كانت كثيرة بين الفرق الإسلامية المختلفة ، وقد أثرت هذه الحالة فى حياة الناس الدينية ، فراج التعصب ، وانتشرت الخرافات ، وازداد الميل إلى العزلة والانزواء ، والاعتكاف للعبادة ، والترفع عن زخرف الدنيا ومتاعها الفانى .

وكانت هناك معسكرات سياسية ذات صبغة دينية أهمها :

---

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ، ج ٣ ص ٢٧٨ .

(أ) المعسكر السني : وكان يمثله العباسيون فى بغداد ، وكان نفوذ هذا المعسكر يمتد من الشام غربا إلى الهند شرقا ، وقد اتسع هذا النفوذ ، بعد إسقاط الدولة الفاطمية ، حتى وصل إلى مصر وشمالى إفريقية ، بينما كانت الدولة السلجوقية لا تزال على قيد الحياة فى إيران والعراق وآسية الصغرى ، غير أن نفوذ هذا المعسكر كان روحيا لضعف الخلفاء العباسيين .

(ب) المعسكر الشيعى : وكان يمثله الفاطميون فى مصر ، وأجزاء من شمالى إفريقية وبلاد الشام ، كما كان يمثله الاسماعيليـــــة فى إيران ، فى أثناء الحكم السلجوقى .

(ج) المعسكر المسيحى : وكان يمثله الصليبيون فى بعض أجزاء آسية الصغرى والشام وفلسطين على حدود الدولة السلجوقية

أما المعسكر السنى فى بغداد ، فكان ضعيف الشأن ، مختل الأوضاع ، بعد أن طغى فيه نفوذ الأمراء والوزراء ، وحكام الدول التى طفت على سطح الخلافة العباسية .

وكان نفوذ السلاجقة قويا نافذا من الناحية السياسية ، بينما كان العباسيون قوة روحية ، لها أثرها فى حياة الناس الدينية ، فكانت تلتف حولهم قلوب أهل السنة ، فى جميع أنحاء العالم الإسلامى ، مما جعل سلاطين السلاجقة أنفسهم يحرصون على الحصول على تفويض منهم بالحكم ، حتى يكسبوا حكمهم صفة شرعية ، تجعل الناس يرضون به ، فلا يثورون عليه ، فلما حدث خلاف بين العباسيين والسلاجقة فى عصر السلطان مسعود السلجوقى ، اهتزت أركان دولة السلاجقة وكان هذا الخلاف عاملا من عوامل سقوط دولتهم — كما ذكرنا — فقد تغيرت نظرة الناس إليهم ؛ فبعد أن كانوا يعدونهم جنود الإسلام المخلصين ، صاروا ينظرون إليهم باعتبارهم أعداء أمير المؤمنين .

وأما المعسكر الشيعي في القاهرة ، فكان ضعيفاً بسبب ضعف الخلفاء الفاطميين ، فاختلت الأوضاع في مصر ، وصار الخلفاء الفاطميون ألعوبة في أيدي الوزراء ، إلى أن سقطت الخلافة الفاطمية على يد صلاح الدين — في عام ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) — فامتد نفوذ المعسكر السني إلى القاهرة .

غير أن المعسكر الشيعي بقي في إيران بعد سقوط الفاطميين لأن الاسماعيلية ظلوا قوة لها خطرها ، في كثير من أوقات حكم السلاجقة ؛ وقد واصل الاسماعيلية نشاطهم ، فأثروا في حياة الناس تأثيراً ملحوظا ، وكانوا مصدر فزع ورعب لأهل السنة ، فاضطربت حياتهم اضطرابا شديدا [١] .

وأما المعسكر المسيحي ، فكان بطبيعته معسكرا غير إسلامي ، يناهض المعسكرين السني والشيعي معا ، ويحاول السيطرة على بلاد المسلمين — أيا كان مذهب حكامها — وكان زعماء المعسكر المسيحي ينتهزون فرصة اضطراب الأوضاع في بلاد المعسكرين السني والشيعي ، فيحاولون بسط نفوذهم على أجزاء من بلاد المسلمين .

وقد عاصرت هذه المعسكرات السياسية ذات الصبغة الدينية الدولة السلجوقية التي كان حكامها يتبعون المذهب السني ، ويتعصبون له ، فرجحت كفة هذا المذهب ، وأصبح المعسكر السني أقوى من المعسكرين الشيعي والمسيحي . وبخاصة حين كان السلاجقة في أوج قوتهم ، وكانت دولتهم مترامية الأطراف .

---

(١) ارجع في تفصيل ذلك إلى كتاب نظامي الكنجوي للمؤلف ، ص ٥٢ — ٥٦

غير أن وجود هذه المعسكرات الدينية المتباينة جعل حياة الناس النفسية قلقة ، غير مستقرة ، مملوءة بالخوف والاضطراب ، فكانت الأفكار مشتتة ، مما جعل الحياة الدينية مضطربة ، وأشاع فى الناس النفاق ، وحبب كثيراً منهم فى العزلة والإنزواء .

ويجدر بنا — فى هذه المناسبة — أن نعرض الفرق الدينية التى كانت مسموعة الصوت فى ربوع الدولة السلجوقية وفى مقدمتها المعتزلة وأهل السنة ، والصوفية .

• • •

المعتزلة :

كانت حركة المعتزلة من أهم الحركات الدينية التى ظهرت فى العالم الإسلامى وقد راجت سوق المعتزلة فى عصر الخليفة المأمون العباسى ، لأن هذا الخليفة وافق المعتزلة فى رأيهم القائل بخلق القرآن ، واستخدم نفوذه فى نشر هذا الرأى ، وإقراره فى أذهان الناس (١) .

وقد حدث تطور فى مذهب المعتزلة فى العصر العباسى الثانى ، فتأثر بفلسفة أرسطو ، فاتخذ شكلا جديدا وأخذ ينتشر تحت تأثير هذه الفلسفة ، كما انقسم إلى أقسام تلتقى جميعاً فى نقطة واحدة ، فقد أجمع المعتزلة على اختلاف فرقهم على نفى الصفات الإلهية ، وعارضوا كل فكرة تتنافى مع وحدة الله ، وقرروا أن العقل قادر على إدراك وسائل الخلاص ، وطرق النجاة (٢) .

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ، ج ٣ ، ص ٢١٣ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢١٦ .

ويرى بعض الدارسين[1] أن المعتزلة تأثروا تأثراً شديداً بالفلسفة الإغريقية وأجهدوا أنفسهم فى أن يضيفوا إلى المعانى الإسلامية التى جاء بها القرآن، جميع ما احتوته الثقافة اليونانية من أفكار علمية وفلسفية، وأن يلائموا بينهما وأن يخرجوا منها مزيجاً جديداً يتفق مع تعاليم الإسلام وأصوله.

وقد ثار الخلاف بين المعتزلة والفلاسفة[2] من ناحية، وبين المعتزلة ومخالفيهم من رجال الفرق الإسلامية الأخرى، فأفنى المعتزلة أوقاتهم وقواهم فى المناقشات المستمرة التى أثارتها مدرستا البصرة وبغداد، غير أن المعتزلة ظلوا أقوياء، حتى ثار عليهم أبو الحسن الأشعرى، وصرعهم أبو حامد الغزالى[3].

ويتضح مما ذكرنا أن قوة المعتزلة، كانت آخذة فى الضعف عند قيام دولة السلاجقة، بينما كان مذهب أهل السنة يزداد قوة، مما يسر له الغلبة والسيطرة.

* * *

أهل السنة :

كان العصر السلجوقى — فى الواقع — عصر انتصار لأهل السنة، فقد ساعد تعصب سلاطين السلاجقة للمذهب السنى على انتعاش أهل السنة، وفل شوكة المعتزلة، فانتصر مذهب أهل السنة انتصاراً ملموساً.

والواقع أن مذهب المعتزلة أخذ فى الضعف، فى أثناء القرن الرابع الهجرى

---

(١) من أشهر فلاسفة المسلمين فى العصر العباسى أبو نصر الفارابى المتوفى فى عام ٣٣٩ هـ (ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٧٦) وأبو على بن سينا المتوفى فى عام ٤٢٨ (المرجع السابق، ج ١، ص ١٥٢ — ١٥٤).

(٢) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام، ج ٣، ص ٢١٨.

(العاشر الميلادى) ، بعد أن حمل أبو الحسن الأشعرى على آراء المعتزلة ، وحاربهم حربا شعواء ، ووافق أهل السنة فى كثير مما ذهبوا إليه .

ويعد الأشعرى — فى الحقيقة — الرجل الذى قهر المعتزلة ، وقوض دعائم نظرياتهم ، وأعاد للإيمان السلف منزلته العالية ، فبقى بعده تراث أهل السنة[1]

وقد حارب الأشعرى المعتزلة بسلاحهم ، فاستعان بالمنطق والفلسفة فى دحض حججهم ، والرد على أقوالهم ، وهو يعد بحق مؤسس علم الكلام فى الإسلام ، ثم غلبت بعده النزعة المدرسية على التفكير الإسلامى ،وهى النزعة التى ترمى إلى التقريب بين تعاليم الدين الإسلامى ، وبين مبادىء الفكر اليونانى[2] .

وقد دعا الأشعرى إلى إطاعة أوامر الدين والتزامها دون ممانعة ، وكان الغرض من إنشاء المدارس النظامية ، التى أسسها الوزير السلجوقى المعروف نظام الملك — نشر الطريقة الأشعرية فى الفقه الإسلامى .

وكان لجهود الأشعرى أثر كبير فى إحياء مذهب أهل السنة على ، وقد تم انتصار أهل السنة للمعتزلة لظهور حجة الإسلام أبى حامد الغزالى فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ، لأن الغزالى وجه جهوده إلى الإشادة بمذاهب أهل السنة ، والحط من شأن الاعتزال والفلسفة .

وقد ولد الغزالى[3] فى عام ٤٥٠ﻫ (١٠٥٨ م) أى بعد قيام الدولة السلجوقية

---

(١) الأشعرى : مقالات الإسلاميين ، ص ١٥٥ — ٢٧٨ ، الشهرستانى : الملل والنحل ، ص ٦٥ — ٧٥ .

(٢) حتى وجرجى وجبور : تاريخ العرب ، ج ٢ ، ص ٥١٩ .

(٣) بتشديد الزاى نسبه إلى غزال من الغزل .

ودخول طغرل الأول بغداد ، وشب الغزالى على مذهب أهل السنة ، ثم أخذ فى التصوف .

وكان الغزالى من الذين اشتغلوا بالتدريس فى المدرسة النظامية ببغداد مدة من الزمن — منذ عام ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) — وألف بعد جنوحه إلى التصوف كتباً بالعربية والفارسية ، ومن أهم كتبه المؤلفة بالعربية كتاب « إحياء علوم الدين » الذى حاول فيه إنعاش الشريعة الإسلامية ، وتوضيح طريق أهل السنة فى الصورة الصوفية التى رآها فى ذلك الوقت ، وكانت كتب الغزالى الأخرى مثل : « فاتحة العلوم » و « مقاصد الفلاسفة » و « الاقتصاد فى الاعتقاد » تدل على مدى ماوصلت إليه تأملات أهل السنة وأفكارهم فى ذلك الوقت .

وقد توفى الغزالى فى عام ٥٠٥ هـ (١١١١ م) بعد أن سار شوطاً طويلا فى هذا الطريق ، أى أن أهل السنة راجت سوقهم فى العصر السلجوقى ، فارتفع صوتهم ، وكثر المعبرون عن آرائهم وأفكارهم .

• • •

الصوفية :

راجت سوق التصوف فى ظل دولة السلاجقة — كما ذكرنا — وساعد على رواجها اضطراب الحياة السياسية ، وكثرة النزاع بين الفرق الإسلامية المختلفة ، وعداوة أهل العلم بعضهم للبعض الآخر ، وغلبة الجفاف على المباحث العلمية والفلسفية ، واستخدام العلم والفلسفة أداة للمجادلات المذهبية وجعل المباحث العلمية محصورة داخل نطاق الإحساسات المذهبية ،[1] فشاع

---

(١) قاسم غنى : تاريخ تصوف در إسلام ، ص ٤٦٤ .

التعصب ، واشتـــدت المنازعات بين الفرق ، وازداد التشتت ، وانتشرت الخرافات .

وكانت هذه الأوضاع سبباً فى انحراف العلم عن محوره الحقيقى ، الذى هو البحث عن حقائق الأشياء ، فشاع ضيق النظر ، نتيجة لغلبة التعصب ، واتخاذ أصحاب المذاهب المختلفـــة الحكمة والفلسفة خادمتين لجادلاتهم ومناظراتهم .

وقد انتشرت هذه الظواهر فى القرن الخامس الهجرى ، الذى ظهرت فيه دولة السلاجقة على مسرح التاريخ ، فكثرت الفرق الإسلامية ، وراجت سوق الأشاعرة — كما ذكرنا — وتعددت الحروب بين أهل السنة والشيعة وفتح كل فريق منهم مدارس ، ورتب مجالس الدرس ؛ وحاول كل منهم ترويج مذهبه ، والانتصار على أعدائه ؛ كما حاولت كل فرقة تخريب مدارس الفرقة الأخرى ، وكانت تعد هذا العمـــل قربى إلى الله ، ووسيلة للظفر برضاه .

وثار الغزالى ـ فى أواخر ذلك القرن ـ فى وجه الفلاسفة . وأخذ يفند حججهم ، ويسفه أحلامهم ، ويكفرهم فى كتابه المعروف « تهافت الفلاسفة »[١] كما ذكر القفطى أن معاصرى عمر الخيام الشاعر الفيلسوف الذائع الصيت تناولوه بالقدح فى دينه ، وحاولوا تكفيره حتى اضطر إلى ترك مدينة نيسابور والذهاب إلى الحج . وكان ـ بعد رجوعه من مكة ـ يخفى أسراره . ويتظاهر برعاية ظواهر الشرع[٢] .

وقد اشتد النزاع المذهبى بين الشيعة والسنة والمعتزلة والأشاعرة ؛ كما

---

(١) الغزالى : تهافت الفلاسفة ، ص ٣ — ٤ .

(٢) القفطى : تاريخ الحكماء ، ص ١٦٢ — ١٦٣ .

ظهر النزاع بين مذاهب أهل السنة المختلفة ، وبخاصة بين الشافعية والحنفية وكان النزاع يتطور ، فيصل — أحيانا — الى درجة الاشتباك بالأسلحة[١].

ويبدو مما ذكره ابن الأثير[٢] أن عصر السلاجقة شهد النزاع المذهبي ، بين الفرق الإسلامية ، وأصحاب المذاهب المختلفة ، فى أنحاء العالم الإسلامى ، وبين أن نيران هذا النزاع كانت مشتعلة حتى قبل قيام دولة السلاجقة . فقد أشار — عند ذكره حوادث سنة ٤٠٧ هـ — إلى قتل الشيعة بافريقية ، وذكر ضمن حوادث سنة ٤٠٨ هـ — النزاع بين أهل السنة وأهل محلة الكرخ الشيعة وعرض — عند ذكر حوادث سنة ٤٤٣ هـ — النزاع بين السنة والشيعة . وتخريب أهل السنة منازل الشيعة وأبنيتهم — حتى قبور الكاظمية — وأشار إلى مثل هذا النزاع عند ذكره حوادث سنة ٤٤٤ هـ ، وقال إن النزاع امتد إلى سنة ٤٤٥ هـ .

ويكفى هذا للدلالة على أن حياة الناس الدينية فى العصر السلجوقى ، لم تكن مستقرة نتيجة لكثرة النزاع بين أصحاب المذاهب المختلفة ، مما أدى إلى بلبلة الأفكار ، وتفرق المسلمين شيعا ، واشتداد موجة التعصب بين الفرق المختلفة ، وقد ازدادت هذه الموجة حدة فى القرن السادس الهجرى ، الذى انقسمت فيه دولة السلاجقة إلى أقسام متنازعة[٣].

وقد مهد النزاع بين الفرق الإسلامية المختلفة السبيل أمام الصوفية ، فنشروا تعاليمهم بين الناس ، الذين فضلوا عبادة الله ، والتقرب إليه ، عن طريق الزهد والتقشف ، ونفروا من علم الكلام ، ولم يجدوا فيه ما يروى ظمأ نفوسهم

---

(١) قاسم غنى : تاريخ تصوف در إسلام ، ص ٤٦٨ .

(٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنوات ٤٠٧ و ٤٠٨ و ٤٤٣ و ٤٤٤ و ٤٤٥ هـ .

(٣) ارجع فى تفصيل ، ذكرنا إلى كتاب نظام الكنجوى للمؤلف ، ص ٥٧ — ٧١ .

المولعة بحب الله تعالى ، فكان التصوف - حينذاك - يمثل حركة مضادة للنظر العقلى فى الدين ، وكان يعتمد على أساس نفسى ، هو تشويق المرء إلى التقرب إلى الله تقربا فرديا مباشرا ، عن طريق الزهــــد فى متاع الدنيا ، والخلوة والاعتكاف للعبادة .

وقد ساعدت الظروف على رواج سوق التصوف ، فأصبح الصوفية موضع احترام الناس والأمراء والسلاطين ، لبعدهم عن المجادلات المذهبيه، والتصارع فى سبيل الظفر بمناصب الدولة السلجوقية ، مما أدى إلى انتشار التصوف ، بحيث أصبحت طبقة المتصوفة من أهم طبقات المجتمع فى العصر السلجوقى ، فكثر المتمسحون بهذه الطبقة ، ووجد شيوخ الصوفية الفرص المناسبة لنشر تعاليمهم بين أفراد الشعب بعامة ، وبين طبقات العمال والصناع والفقراء بخاصة ، فضموا الكثير من هؤلاء إلى صفوفهم ، وعظم تأثيرهم فى حياة الناس .

وقد ساعد السلاجقة على انتشار التصوف ، بسبب بداوتهم وغلبة الصبغة القبلية عليهم ، مما جعلهم يعجبون بالمظاهر البراقة ، فراقهم مظهر طوائف الصوفية ، وأعجبوا بتصرفات شيوخها ، فبالغوا فى احترامهم ، وفتحوا آذانهم لاستماع نصائحهم[1] .

وكان شيوخ الصوفية يبتعدون عن مصاحبة السلاطين وأصحاب النفوذ والجاه ويزهدون فى الدنيا ، ولا يتدخلون فى النزاع بين الفرق المختلفة ؛ وينتهجون سياسة السلام مع الجميع[2] ، مما أكسبهم احترام الخاصة والعامة .

وقد ازداد التصوف انتشارا فى القرن السادس الهجرى حينما أخذت

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٩٨ — ٩٩ .

(٢) قاسم غنى : تاريخ تصوف در إسلام ، ص ٤٧٣ — ٧٥ .

دولة السلاجقة فى التفكك والضعف ، وازدادت الخلافة العباسية ضعفا ، بينما كانت الحملات الصليبية على البلاد الإسلامية على أشدها،فاضطربت الأحوال فى أرجاء العالم الإسلامى ، واهتزت المثل الأخلاقية ، فازداد ميل الناس إلى التصوف ، وأخذ شيوخ الصوفية يبثون تعاليمهم ، ويظهرون للناس أن هذه التعاليم هى الوسيلة الوحيدة لتهذيب النفوس[١] .

وقد بلغ نفوذ العلوم الدينية درجة عظيمة ، فكثرت الكتب المؤلفة فى المسائل الدينية والمذهبية، وشاع الغلو، وظهرت المبالغة فى الموضوعات المذهبية ، نتيجة للنزاع بين الفرق الإسلامية ، وازدياد التعصب ، وضيق النظر ، بصورة واضحة غالبة ، كما ازداد — فى الوقت نفسه — الحديث فى المسائل الصوفية .

ونستطيع أن نستشف من الكتب والأشعار التى بقيت لنا عن عصر السلاجقة أثر اضطراب الأوضاع فى البلاد الإسلامية فى اهتزاز القيم الروحية، وتزلزل الروح المعنوية، وفساد الأخلاق وانعدام الفضائل،نتيجةلخوف الناس، وتوقعهم الموت أو الأسر ، فكثر فى إنتاج أدباء القرن السادس الهجرى — من كتاب وشعراء — الحديث عن انعدام المروءة ، وضياع الوفاء ، واختفاء الأمانة ، وانتشار الغدر والخيانة ، واختلال الأوضاع ، وتبدل القيم ، فتبدلت المحبة بالعداوة ، والإنسانية بالجفاء ، حتى تحير العلماء ، وابتلى الفضلاء،مما جعل كثيراً من الناس يذمون الاختلاط ، ويدعون إلى الوحدة والانزواء[٢] ، أى إلى الهروب إلى ميدان التصوف حيث الهدوء والسكينة ، والراحة والطمأنينة .

وكان شيوخ الصوفية يحاولون القيام بمهمة تهدئة النفوس ، وتسكين

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٨٢ .

(٢) قاسم غنى : تاريخ تصوف در إسلام ، ص ٤٨٧ .

خواطر الناس ، فأظهروا أنفسهم فى صورة دعاة الإصلاح والصفاء والعدل والوفاء ، وكان الناس يطمئنون إليهم ، ويثقون فيهم ، لبعدهم عن التعصب ، فظهروا أمام الناس فى صورة عامل ملطف فى جو ملفم بالأحداث المختلفة ، والتيارات المتعارضة ، فهرع الناس إلى حظيرة التصوف هرباً من جور الزمان وقسوته ، وكثرت مجالس الصوفية ، وأقبل الناس عليها ، حتى إن الناس من غير الصوفية كانوا يقضون ساعات فى صحبة الصوفية بقلب فارغ من جور الزمان ، واضطراب الأحوال [١] .

وكان انتشار التصوف ، وظهور صبغته فى كثير من مظاهر النشاط البشرى فى العصر السلجوقى من الأمور المهدئة للنفوس بعد أن أوجدت روح العصر شيئاً من السأم ، وجعلت الشعراء والكتاب يكثرون من الشكوى من إهمال حقوقهم ، ويعنون بالحديث فى المسائل الشخصية التافهة ، ويشغفون بذم طريقة مخالفيهم ، ويصرفون أوقاتهم وتفكيرهم فى الهجاء والقدح ، ويحرصون — فى الوقت نفسه — على مدح أنفسهم ، وإظهار علمهم ، وبيان فضلهم بشىء من الفخر والغرور ، والشكوى من بقاء قدر الواحد منهم مجهولا [٢] .

والواقع أن كثرة الحروب فى أثناء حكم السلاجقة ، وازدياد النزاع بين الفرق الإسلامية المختلفة ، وفساد الأخلاق من الأمور التى ساعدت على رواج التصوف وأدت إلى انتشار تعاليم الصوفية ، فظهرت صبغة التصوف فى النواحى العلمية والأدبية والاجتماعية ، أى فى كثير من ألوان النشاط البشرى فى العصر السلجوقى .

* * *

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٠١ .
(٢) انظر : گنجينه گنجوى ، ص ١٧٤ — ١٧٩ .

٤ — الناحية الاجتماعية

طبقات الشعب :

كان لبداوة السلاجقة أثر في الناحية الاجتماعية في عصرهم ، فقد كانوا قوما يحكمهم النظام القبلي ، وكان الطابع الذي غلب على حياتهم قبل قيام دولتهم هو الميل إلى التنقل والارتحال ، طلبا للرزق ، واختياراً للأماكن المناسبة لإقامتهم في فصول السنة المختلفة ، فلم يكونوا يألفون حياة المدن [1] التي تتسم بالاستقرار ، وبناء الدور والقصور .

ولما كون السلاجقة دولة لهم ، وأصبحت مقاليد الأمور في أيديهم ، وسيطروا على إيران والعراق ، وما جاورها من بلاد إسلامية وغير إسلامية ، تركوا آثاراً واضحة في الحياة الاجتماعية في البلاد التي سيطروا عليها ، وغلب نفوذهم فيها .

وكان للحكم السلجوقي أثر في طبقات المجتمع في عصرهم ، وفي إعطاء أهمية خاصة لطبقة أو تمييز طبقة على غيرها من الطبقات ، بحيث أصبحت طبقات المجتمع في ظل دولة السلاجقة تتفاوت أهميتها ودرجتها وفقا لنظرة سلاطين السلاجقة إلى كل طبقة من طبقات المجتمع .

فقد كان سلاطين السلاجقة الأولون غير مثقفين — كما ذكرنا — فوجدوا أنفسهم في حاجة ماسة إلى كثير من الموظفين ، للاستعانة بهم في مختلف الأمور [2] ، فأصبحت طبقة الموظفين من أهم طبقات المجتمع السلجوقي ، وصارت

(١) نظامي عروضي سمرقندي : چهار مقاله ، ص ٢٣ — ٢٤ .
(٢) برتلس : نظامي شاعر آذربيجان ، ص ١٣ .

درجتها تلى درجة طبقة السلاطين والأمراء .

وكانت طبقة الموظفين تضم الوزراء والحجاب والكتاب ، وكان نفوذ أفرادها يختلف باختلاف مناصبهم ، ومدى اتصالهم بالسلطان السلجوقى ، وكانوا — على كل حال — من أبرز طبقات المجتمع طوال حكم السلاجقة .

وكان أفراد طبقة الموظفين يساهمون فى توجيه سير الأحداث فى العصر السلجوقى ، فاستطاعوا أن يلعبوا دوراً بارزاً موجها فى كثير من الأحداث السياسية والغير السياسية ، بل إنهم استطاعوا أن يسيطروا على السلاطين فى بعض مراحل تاريخ السلاجقة ، ويوجهوهم وفق إرادتهم ، كما رأينا .

وقد أدى النظام القبلى — الذى كان يغلب على حياة السلاجقة — إلى ظهور طبقة أبناء القبائل السلجوقية . وساعد على ظهور هذه الطبقة وفود عدد من القبائل السلجوقية إلى إيران ، وغيرها من الأقطار الإسلامية . وإقامتها فى هذه الأقطار الخاضعة لحكم السلاجقة .

وكان سلاطين السلاجقة يضطرون — أحيانا — إلى إعطاء هذه القبائل امتيازات ، منها إعطاء أفرادها مرتبات كالجنود سواء بسواء ، مما جعل طبقة أبناء القبائل السلجوقية من طبقات المجتمع المهمة فى العصر السلجوقى .

غير أن وجود هذه الطبقة كان — أحيانا — مصدرا للفتن والقلاقل ، وبخاصة فى الأوقات التى كان السلاطين فيها يمتنعون عن دفع مرتبات لأفراد هذه الطبقة ، أو يحرمونهم من بعض امتيازاتهم ، فكانوا يزيدون الحالة السياسية سوءا واضطرابا[1] ، كما كان طبيعيا أن يؤثر وجود القبائل ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٤ .

والنظم القبلية السائدة بينها ، فى بعض مظاهر الحيـــاة الاجتماعية ، فى ظل الدولة السلجوقية .

كما ساعد الحكم السلجوقى على ظهور طبقة رجال الصوفية ، فصارت من أهم طبقات المجتمع ، طوال عصر السلاجقة ، وكان لأفراد هذه الطبقة أثر واضح فى حياة الناس الاجتماعية ، فقد أدى انتشار تعاليم الصوفية بين كثير من أفراد المجتمع إلى ميلهم إلى الاعتكاف والانزواء ، وتفضيلهم الوحدة على الاختلاط ، وبخاصة فى الأوقات التى ضعفت فيها دولة السلاجقة ، فاضطربت الحالة السياسية ، وساد القلق حياة أفراد المجتمع ، فنزع من قلوبهم الاطمئنان ، وزرع فيها الشك ، وعدم الثقة ، فانعدمت بينهم المثل الرفيعة ، وانتشرت بينهم الأخلاق الذميمة ، حتى إن إحدى فرق الصوفية — وهى فرقة الأخية الفتيان — كانت تستعمل السلاح وسيلة لأخذ حقها ، وإصلاح المجتمع بالقوة ، إذا لزم الأمر ، والضرب على أيدى الظلمة ، وقتل الشرطة ، ومن لحق بهم من أهل الشر ، وتقديم المساعدة للمحتاجين ، والوقوف فى وجه الحكام الظالمين ، وكانت تعاليم هذه الفرقة أكثر تمشيا مع طبائع سكان الثغور ، فآمن كثير منهم بها ، وكثر الأخية الفتيان فى هذه المدن ، وفى المناطق المجاورة لها [1] .

ومن طبقات المجتمع الجديرة بالذكر — فى العصر السلجوقى — طبقة الرقيق ، فقد انتشر اتخاذ الرقيق انتشاراً كبيراً ، وكانت مدينة سمرقند من أكبر أسواق الرقيق ، كما كانت بيئة صالحة لتربية الرقيق المجلوب من بلاد ما وراء النهر ، وكان أهلها يتخذون هذا الأمر صناعة لهم ، يعيشون فيها .

ولما قامت دولة السلاجقة كان اتخاذ الرقيق أمراً مألوفاً ، وكان الخلفاء

---

(١) ابن بطوطة : رحلته ، ج ١ : ص ١٨١ — ١٨٢ .

العباسيون لا ينظرون إلى الرقيق نظرة ازدراء [١] لأن كثيرين منهم كانت أمهاتهم من الرقيق، وقد أولع الخلفاء وكبار رجال الدولة العباسية باتخاذ الإماء، حتى إنهم كانوا يفضلونهن — أحياناً — على العربيات الحرائر [٢].

وكان وجود طبقة الرقيق فى المجتمع السلجوقى أمراً عادياً، لوجود أسواق الرقيق فى سمرقند، وبلاد ما وراء النهر، ولكثرة الحروب، وما يتخلف عنها من الأسرى، وكان سلاطين السلاجقة والأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة يتخذون الرقيق، ويستعينون بهم فى مختلف الأعمال.

وقد وصل كثير من هؤلاء الرقيق العبيد إلى درجة الإمارة، فكونوا الدول والدويلات فى عصر السلاجقة، ونذكر — على سبيل المثال — أبناء آنوشتكين الذين أسسوا الدولة الخوارزمية، وايلدكز الذى أسس دويلة الأتابكة فى آذربيجان.

ونذكر من طبقات المجتمع السلجوقى — أيضاً — طبقة أهل الذمة، وكانت تضم النصارى واليهود، وكان أفرادها يتمتعون بالحرية والطمأنينة والحياة المستقرة، ويقيمون شعائرهم الدينية فى أمن ودعة، نتيجة للتسامح الدينى الذى كان يسود بلاد المسلمين، ويحرص عليه الحكام فى الدول الإسلامية المختلفة، تطبيقاً لمبادىء الإسلام فى معاملة أهل الذمة الذين يعيشون مع المسلمين.

وقد أوجدت الحاجة إلى المعيشة المشتركة، وما ينبغى أن يكون فيها من

---

(١) متز: الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، ص ٢٦٨
(٢) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، ج ٣، ص ٤٢٤.

وفاق بين المسلمين والنصارى واليهود نوعا من الود والتسامح ، فلم تتدخل الحكومة الإسلامية فى شعائر أهل الذمة[١] .

وقد انضم المجوس إلى طبقة أهل الذمة منذ القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، بعد أن اعترفت الدولة العباسية بأنهم أهل الذمة ، وكثر المجوس فى ذلك القرن فى العراق وجنوبى فارس[٢] وأدى اعتراف الخلافة العباسية بالمجوس إلى اعتبارهم أهل ذمة فى ظل حكم السلاجقة ، الذين كانوا يدينون بالطاعة والولاء للخلافة العباسية ، ويحرصون على الظفر بموافقة الخلافة على حكمهم ، حتى يكتسب حكمهم صفة شرعية أمام الناس .

وهكذا أثرت غلبة العنصر السلجوقى فى إيجاد ظواهر اجتماعية ، كانت لها آثار واضحة فى حياة الناس الاجتماعية ، وفى تشكيل طبقات المجتمع فى العصر السلجوقى ، وفى تحديد أهمية كل طبقة من طبقات المجتمع .

• • •

مظاهر الحياة الاجتماعية :

يسر اتساع الدولة السلجوقية ، وكثرة الأموال التى ترد إلى خزانة الدولة ، سبل العيش الرغيد ، وأسباب الترف لسلاطين السلاجقة ، وكبار رجال الدولة فى عصرهم ، فانغمسوا فى الترف والملذات ، فاتسمت معيشتهم بالأبهة ، ووضحت فيها مظاهر البذخ والإسراف ، وكان لبداوة السلاجقة أثر فى حبهم للمظاهر الخلابة ، وبنائهم للقصور الفاخرة ، التى كانت تعد مضرب المثل فى الروعة والجمال ، وفى اتخاذهم الخدم والحشم ، وحرصهم على إقامة مجالس الطرب والشراب .

---

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ، ج ٣ ، ص ٤٢٤ .
(٢) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ص ١٢٦ .

ولم تقتصر مجالس الغناء على سلاطين السلاجقة ، بل تعدتهم إلى الأمراء والوزراء ، ومن على شاكلتهم من كبار رجال الدولة والأغنياء ، وساعد على انتشار الغناء وجود الجوارى ، وكثرة المدربات منهم على الغناء ، مما جعل السلاطين وعظماء الدولة وأغنياءها يولعون بالشراب وسماع المغنيات .

وقد كتب الراوندى — الذى كان يعمل فى خدمة السلاجقة — فصلا عن الشراب فى كتابه راحة الصدور وآية السرور ، حاول فيه أن يدافع عن ولع السلاجقة بالشراب،وأن يبين أن بعض أنواع الشراب — كالنبيذ مثلا — لا يتنافى تعاطيه مع غيرة السلاجقة الدينية ، وحبهم للدين ونصرتهم له (١) .

كما أحب السلاجقة الطعام ، فتأنقوا فيه ، وتفننوا فى ألوانه ، وأولعوا بتنوعه ، والإسراف فى إعداده ، وفى تزيين الموائد بالورود والرياحين .

وكان تعدد الزوجات من الأمور المألوفة فى المجتمع السلجوقى ، فكثر الأبناء من أمهات مختلفات ، وكان لهذا أثره فى صلات الأبناء بعضهم ببعض ، وفى الصلات الاجتماعية بعامة ، وفى توجيه الأحداث المختلفة فى الدولة ، فى كثير من الأحيان .

وقد تمتعت المرأة بحظ من الحرية فى العصر السلجوقى ، فذكر التاريخ أسماء نساء تمتعن بشىء من النفوذ،وظهرن على المسرح السياسى ،ولعبن أدوارا سياسية ، واشتركن فى الحروب ، نذكر منهن تركان خاتون زوجة ملكشاه المفضلة ، وزبيدة خاتون إحدى زوجات ملكشاه ، وقد نافست تركان خاتون فى الاشتغال بالسياسة، ثم الخاتون زوجة الأتابك جهان پهلوان — كما مر — .

---

(١) ارجع إلى ما كتبه الراوندى عن الشراب فى كتابه راحة الصدور ، ص ٤١٦ — ٤٢٨ .

وكان ظهور المرأة على المسرح السياسي أمراً قليل الظهور في المجتمع الإسلامي ، مما جعل ظهوره في المجتمع السلجوقي أمرا مستهجنا ، وعاملا من عوامل إضعاف الدولة السلجوقية ، ودفعها إلى الانهيار والزوال .

وكانت سوق الألعاب الرياضية رائجة في المجتمع السلجوقي، فكان الناس يقبلون على ممارسة الألعاب المختلفة ، ومن الألعاب الرياضية ـ التي كان الناس يمارسونها خارج المنازل ـ الرماية ، ولعب السيف والترس ، وسباق الخيل ، والصيد ، ولعب الكرة ، والشطرنج .

كما أدى انتشار مجالس الشراب ، وكثرة الجوارى إلى ظهور فن المنادمة ، وأصبح للمنادمة أصول ، وصارت مهنة ، لها أرباب محترفون[١] .

وكان سلاطين السلاجقـــة يقلدون الخلفاء العباسيين في ألوان الحياة الاجتماعية المختلفة ، فقد كان الخلفاء العباسيون — برغم ضعفهم في ذلك الوقت — يعيشون عيشة تتسم بالبذخ ، ويقلدهم فيها الأمراء وكبار رجال الدولة ، فكانوا يسكنون قصورا تعد مضرب المثل في حسن رونقها وبهائها تمتاز باتساعها ، وفخامة بنائها ، وما يحيط بها من حدائق غناء ، كما كانوا يتأنقون في الطعام والشراب ، ومجالس اللهو والطرب ، كما كان تعدد الزوجات واتخاذ الجوارى أمرا مألوفا بينهم .

ومن مظاهر الحياة الجديرة بالذكر — في العصر السلجوقي — رواج سوق التجارة والصناعة ، فقد أكثر تجار المسلمين من رحلاتهم ، حتى وصلوا إلى الصين شرقا . وكان من أهم طرق التجارة طريق الحرير العظيم ، الذى

(١) ارجع إلى الفصول التي كتبها الراوندى ، في كتابه راحة الصدور ، عن المنادمة ولعب الشطرنج والرماية والصيد ، ص ٤٠٠ — ٤٣٧ .

كان يمر بسمرقند وتركستان الصينية ، وكانت هناك قوافل عديدة ، لنقل البضائع المختلفة[١].

كما ازدهرت الصناعات المختلفة ؛ كصناعة السجاد ، والنسيج الموشى ، والحرير ، والمنسوجات الصوفية وغيرها ، من أدوات الفرش والأثاث ، وأوانى المطبخ ، وكانت أنوال فارس والعـــراق الكثيرة تنتج أفخر أنواع السجاجيد[٢].

وقد اشتهرت خراسان وأرمينية بأغطية الفرش والستائر ، وأغطية المقاعد والمساند ، وتخصصت بخارى فى صنع السجاد الفاخر .

وازدهرت — أيضاً — صياغة الجواهر ، وكان اللؤلؤ ، والياقوت الأزرق والأحمر ، والزمرد ، والماس من الأشياء التى يرغب فيها السلاطين والعظماء ؛ ومما ساعد على ازدهار هذه الصناعة غنى الدولة بالمعادن ، فكان الذهب والفضة يوجدان فى خراسان ، كما كان يوجد فيها الرخام والزئبق ، وكان الياقوت واللاجورد يستخرجان من إقليم ماوراء النهر[٣] ووجد الرصاص والفضة فى كرمان[٤]، والفيروز فى نيسابور ، واستخرج اللؤلؤ من البحرين .

وكانت الزراعة من ألوان النشاط البشرى المستحبة ، وبخاصة فى المناطق الصالحة لها ؛ مثل خراسان ، وسجستان ، وماوراء النهر ، كما وجدت الصناعات الزراعية مثل صناعة العطر فى إقليم فارس .

---

(١) حتى وجرجى وجبور ، تاريخ العرب ، ج ٢ ، ص ٤٢١ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٤٢٣ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٤٢٧ .
(٤) ابن الفقيه الهمذانى : البلدان ، ص ٢٠٦ .

والواقع أن مظاهر الحياة الاجتماعية ، وألوان النشاط البشرى المختلفة واصلت سيرها الطبيعى ، بعد تسلم السلاجقة مقاليد الأمور فى إيران والعراق وماجاورهما ، غير أن بداوة السلاجقة جعلتهم يهتمـــون بالمظاهر البراقة ، كالمبانى الفخمة ، واللوحات الجميلة ، ومظاهر الترف فى المأكل والملبس ومجالس اللهو والشراب ، كما جعلتهم لايعنون كثيراً بالاستماع إلى الشعر ، وتذوقه ونقده ، كما كان يفعل كثير من خلفاء العباسيين مثلا[1].

وقد ساعد حكم السلاجقة على اختلاط الإيرانيين بالعراقيين ، فحدث امتزاج حضارى بين الفرس والعرب ، وأدى هذا الامتزاج الحضارى إلى تبادل كثير من التقاليد والعادات الاجتماعية بين الطرفين ، كما أدى تعصب السلاجقة للمذهب السنى — مذهب للخلافة العباسية — إلى انتشار كتب العربية فى إيران ، وظهور كثير من العناصر العربية فى اللغة الفارسية نفسها مما سنتبينه فى حديثنا عن الناحية الثقافية .

* * *

---

(١) بهار : سبك شناسى ، ج ٢ ، ص ٢٤٧ .

٥ — الناحية الثقافية

مراكز الثقافة :

اتسع أفق الفكر الإسلامى فى عهد السلاجقة اتساعاً كبيراً. فقد كانت ملكات المسلمين فى البحث والتأليف على درجة عظيمة من النضج، كنتيجة طبيعية لحركة الترجمة التى نشطت فى الدولة العباسية، وكثرة تنقل رجال العلم والأدب فى مشارق العالم الإسلامى ومغاربه فى ذلك الوقت للاتصال بحكام الدول التى استقلت عن الخلافة العباسية، فنشطت الحركة الفكرية، وراجت الثقافة، وزخر بلاط السلاجقة وغيرهم من حكام الدول بالعلماء والأدباء.

كما أدى ظهور كثير من الفرق إلى إيجاد نهضة علمية، لأن هذه الفرق اتخذت العلم وسيلة لتحقيق مآربها السياسية والدينية. فكان للجدل الذى قام بين هذه الفرق أثر بعيد فى النهضة العلمية تجلى فى الآثار التى خلفها علماء المعتزلة والإسماعيلية والصوفية وغيرهم من علماء الفرق المختلفة، رغم ما أحدثته الفرق من تفكك العالم الإسلامى، وإضعاف الخلافة العباسية[١].

وكان طلاب العلم يجوبون البلاد سعياً إلى موارد العلم والمعرفة، ما جعل المسلمين — فى ذلك الوقت — يأخذون بحظ وافر من العلوم المختلفة من نقلية[٢] وعقلية[٣].

---

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، ج٣، ص ٢٣٦.

(٢) يقصد بالعلوم النقلية علم التفسير، وعلم القراءات، وعلم الحديث، والفقه، وعلم الكلام، والنحو، واللغة والبيان، والأدب.

(٣) تشمل العلوم العقلية الفلسفة والهندسة وعلم النجوم والموسيقى والطب والسحر والكيمياء والرياضيات، والتاريخ والجغرافية.

وتعد المدارس النظامية التي أنشأها الوزير السلجوقى المعروف نظام الملك ، أول نوع — ظهر في الإسلام[١] — من المؤسسات العلمية بمعناها الصحيح ، فقد هيأت لطلابها أسباب العيش ، وأصبحت مثالا لما قام بعدها من دور العلم ومراكز الثقافة العالية .

وقد سلك السلاجقة مسلك البويهيين في رعايتهم للفنون ومناصرتهم للعلوم ، وتنافسوا في ذلك إرضاء للشعب ، فخصصوا المدارس النظامية لتعليم الفقه - ولاسيما أصول المذهب الشافعي - والنظام الأشعرى السنى ، وكان طلابها يتناولون الطعام فيها ، وتجرى على كثير منهم رواتب سنوية .

وكانت المدرسة النظامية في بغداد مدرسة فقه رسمية اعترفت بها الدولة ؛ وقد بدىء في بنائها في عام ٤٥٧ هـ[٢] (١٠٦٥ م) .

وكان مدرسها يعين من قبل الخليفة العباسى ، ومن أشهر العلماء الذين اشتغلوا بالتدريس فيها الغزالى[٣] ، وقد ذكر في كتابه « إحياء علوم الدين »[٤] شيئاً عن التربية ، فندد بالفكرة التي تقول إن هدف التربية هو إدخال الفكرة إلى العقـــل ، ودعا إلى وجوب تحريك الشعور والوازع الخلقى في الطالب .

وقد بنى نظام الملك مدارس دينية على شاكلة مدرسة بغداد في المدن الكبرى كإصفهان ونيسابور ومرو ، مما أبقى ذكره ، كواع من رعاة العلم والثقافة .

---

(١) القزوينى : آثار البلاد ، ص ٢٧٦ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ١٥٦ — ١٥٧ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٥٧ هـ .

(٣) ابن خلكان ؛ وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٢٤٦ .

(٤) الغزالى : إحياء علوم الدين ، ج ٩ ص ٤٣ — ٤٩ .

وكان علم الحديث أساس التدريس فى جميع هذه المدارس الدينية العالية ، وكان العلماء يعتمدون على الذاكرة فيه إلى حد كبير [١].

* * *

دور الكتب وحوانيت الوراقين :

اتخذت المساجد مستودعات للكتب، فكانت خزائنها غنية بالكتب ، لاسيما الكتب الدينية، التى كان الناس يهبونها لها أو يقفونها فيها على القراء، وكانت هناك خزائن كتب أخرى — شبه عمومية — أنشأها الأغنياء والوجهاء [١]، وكانت تضم كتباً فى مواضيع متنوعة ، كالمنطق والفلسفة والفلك وسواها وكثيراً ما كانت هذه الدور منتدى للعلماء ، يتداولون فيها الأبحاث العلمية والمناظرات الأدبية .

أما حوانيت الوراقين ، فكانت دكاكين صغيرة تقام قرب المساجد، ويجلس فيها باعة الكتب الذين كان أكثرهم من الخطاطين أو النساخين أو المتأدبين ، غير أن بعض هذه الدكاكين كان من السعة بحيث تعرض فيها الكتب المختلفة ، ويلتقى فيها الخبراء ، وهواة الدرس فأصبحت بذلك مراكز للأبحاث الراقية .

وقد ساعدت دور الكتب وحوانيت الوراقين على رفع مستوى الثقافة، وإيجاد طبقة من المثقفين على درجة كبيرة من النضج والتفوق العلمى .

---

(١) حتى وجرجى وجبور : تاريخ العرب ، ج ٢، ص ٤٩٧ — ٥٠٠ .
(٢) حتى وجرجى وجبور : تاريخ العرب ، ج ٢ ، ص ٥١١ .

التقدم العلمى :

كان المسلمون — فى عهد السلاجقة — قد وصلوا إلى درجة عظيمة من التقدم فى كثير من العلوم كالطب والفلسفة والكيمياء والفلك والرياضيات والجغرافية، فقد استفادوا من الترجمة والاقتباس من التراثين اليونانى والفارسى، وهضموا ما فيهما، ثم أخذوا يستنبطون منهما، ويضيفون عليهما، فظهرت مآثر المسلمين فى كثير من العلوم .

ولقد شجع السلطان ملكشاه السلجوقى الدراسات الفلكية، فأسس مرصداً فى نيسابور فى عام ٤٦٧ هـ (١٠٧٥ م)[١]، اشتغل فيه عمر الخيام مع جماعة من العلماء فى إصلاح التقويم الفارسى، وتنظيم التقويم المعروف بالتقويم الجلالى، كما مر .

وكثرت المؤلفات باللغتين العربية والفارسية فى العلوم المختلفة، مما جعل الدارسين يلمون بأطراف من مختلف العلوم والفنون فى عصرهم، ويحرصون على إظهار ذلك فى كتاباتهم، وراجت هذه الظاهرة عند العلماء والكتاب والشعراء[٢]، فأصبحت دليلا على مبلغ ما وصل إليه العلم من تقدم عند المسلمين بعامة فى أثناء الحكم السلجوقى[٣].

• • •

---

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٦٧ هـ .

(٢) نظامى الكنجوى المؤلف ص ١١٤ — ١٢٣ .

(٣) هذا موضوع يضيق مجال هذا الكتاب عن استقصاء البحث فيه، ويمكن الرجوع إلى كتاب حتى وجرجى وجبور، تاريخ العرب، ج ٢ ، ص ٤٤٤ — ٤٩٤ للالمام بفكرة عنه .

٦ ـ الناحية الفنية

فنون النقش والتصوير والمعمار :

ارتقت الفنون فى عصر السلاجقة ارتقاء ملحوظاً ، فازدهرت فنون النقش والتصوير والصنعة والمعمار ، لأن السلاجقـــة كانوا يعشقون الفنون الجميلة ويرعونها(١).

وكان لبداوة السلاجقة أثر فى ازدهار الفنون ، فقد شغفوا بالمبانى الفخمة ، والنقوش الجميلة ، واللوحات المزخرفة ، فكانت هـذه الفنون تبهر أنظارهم وترضى أذواقهم ، وتسد ما فى نفوسهم من فراغ ، وكان سلاطين السلاجقة أنفسهم يحمون الفنون ، ويشجعون المشتغلين بها(٢) ـ كما ذكرنا ـ فبقيت روائع الفن الإيرانى منذ عهد السلاجقة ، حتى إن كثيراً من العلماء ليعتقدون أن الفن الإسلامى قد وصل إلى أعلى درجاته فى عصرهم ، وأن الآثار الباقية ، منذ عصر السلاجقة قليلة النظير فى تاريخ الفن الإيرانى(٣).

وقد نقلت فتوحات السلاجقة أصول الفن الإيرانى إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط وشمال إفريقية ، فشوهدت سمات من الفنون الإيرانية فى عصر السلاجقة فى الآثار المصرية والسورية بعد ذلك بعدة قرون ، وبقى الفن الإيرانى حياً مقروناً بالعشق والابتكار فى داخل إيران وخارجها(٤).

وقد تأثر الفن الإسلامى فى الدولة العباسية بالفن الفارسى تأثراً عظيما ،

---

(١) كريستى ويلسون : تاريخ صنايع إيران ، ص ١٤٢ .

(٢) M. S. Dimand: A Handbook of Mohammadan Art, p. 173

(٣) كريستى ويلسون : تاريخ صنايع إيران ، ص ١٤٢ .

(٤) كريستى ويلسون : تاريخ صنايع إيران ، ص ١٤٣ .

فأولع الخلفاء العباسيون والأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة ببناء القصور الفخمة المحلاة بالرسوم والزخارف من الداخل والخارج وعليها صور من الجص المجسم، كما كانت طبقاتها مغطاة بستور الديباج، مزينة بالرسوم التي كانت من مميزات الفن الفارسي[١].

وكان الفرس منذ أقدم العصور أساتذة في فن الزخرفة والتلوين وقد ارتقى هذا الفن في عصر السلاجقة كما ارتقى فن زخرفة السجاد، واتخذت مشاهد الصيد والحدائق لرسمها على السجاد، واستعمل حجر الشب لتثبيت الألوان[٢].

وقد ازدهر فن الخط أيضاً، وهو فن إسلامي خالص كان من أغراضه أن يخلد كلام الله في الصحف، ومن هذا الغرض استمد مكانته، فكان للخطاطين مكانة وكرامة، وكان السلاطين والأمراء يسمون لنيل الحظوة الدينية بكتابة القرآن، كما ارتقت الفنون المتصلة به، كالزخرفة بالألوان وتزيين الكتب والتذهيب، وصناعة التجليد لعلاقتها بكتاب الله، وراج فن زخرفة الكتب وتزيين المصاحف في العصر السلجوقي.

وقد ذكر الراوندى أنه تعلم سبعين نوعاً من الخط وأتقن فن تذهيب المصاحف وتجليدها، وكان يكسب قوته من هذا الطريق، كما استطاع به أن يلتحق بخدمة السلطان طغرل الثالث آخر سلاطين سلاجقة العراق[٣]، مما يدل على رواج فن الخط وأهميته في العصر السلجوقي.

* * *

---

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام، ج ٣، ص ٤٠٥ .

(٢) حتى وجرجى وجبور : تاريخ العرب، ج ٢، ص ٤٠٩ .

(٣) الراوندى : راحة الصدور، ص ٤٠ — ٤٤ .

فن الأدب :

لم يكن سلاطين السلاجقة يتذوقون الأدب الفارسى لأنهم لم يكونوا على حظ وافر من الثقافة(١) ، ولكن فن الأدب الفارسى ارتقى فى عصرهم ، لأن الأدب كغيره من مظاهر الحضارة يخضع لسنة التطور .

وقد بدأ الأدب الفارسى الإسلامى تطوره منذ القرن الثالث الهجرى ، فلما أدرك عصر السلاجقة كان فن صناعته قد ارتقى إلى حد كبير .

ونشرت فتوحات السلاجقة اللغة الفارسية فى آسية الصغرى ، فأصبحت بلاد الفارسية تمتد من الهند شرقاً إلى البحر الأبيض المتوسط غرباً ، وظهرت أهميتها فى بلاد كانت فيها آداب قومية ، كبلاد الأرمن وجورجيا ، فبدت آثارها فى هذه الآداب(٢) .

كما ظهر لون جديد من ألوان الأدب هو أدب المدينة ، أنتجته ظاهرة اجتماعية — أشرنا إليها — هى ظهور المدينة باعتبارها مستقلة لها خصائصها ومميزاتها ، وهى ظاهرة تنبه لهـــا القدماء ، فقسم بعضهم الآداب بحسب المدن(٣) .

وقد اجتهد حكام المدن فى جميع الشعراء والكتاب حولهم ، حتى يظفروا بمدحهم والتغنى بفضائلهم ، غير أن آداب المدن كانت خاضعة لتأثير آداب البلاط ، فكان شعراء المدن وكتابها يستعملون الأسلوب ، الذى يستعمل فى مدح السلاطين ، فى مدح حكام المدن بنفس الطريقة تقريباً ، غير أن آثار المدينة

(٢) بهار : سبك شناسى ، ج٣ ص ٢٤٥ — ٢٤٧ .

(١) براس : نظامى ، ص ١٦ — ١٧ .

(٣) قسم عوفى فى لباب الألباب والطفعل بيك فى آتشكده الشعراء بحسب المدن .

وما فيها من عادات وتقاليد كانت تظهر فى أشعار شعرائها ، وكتابات كتابها بين الحين والحين (١) .

وبقيت الآداب السلطانية — فى العصر السلجوقى — دون تغيير كبير ، غير أن حياة شعراء البلاط وكتابه لم تكن خالية من المتاعب نظراً لقيامهم بأدوار سياسية فى كثير من الأحيان (٢) .

وقد أثرت روح العصر السلجوقى ، وما ساد دولتهم من فتن - فى أثناء مراحل الضعف السياسى - فى إبراز ظاهرة الوصولية والأنانية بين كثير من الكتاب والشعراء ، فكانت الغاية عندهم تبرر الوسيلة ، مما جعل التلاميذ يهجون أساتذتهم ، ويشون بهم فى سبيل الظفر برضا البلاط وشق الطريق فيه لأنفسهم ، وقد أحس كثير من الشعراء والكتاب بما فى حياة البلاط من كذب وزيف ونفاق فنفروا منها وابتعدوا عنها ، وأحسوا بأن أدب البلاط أدب تختفى فيه شخصياتهم لتظهر شخصيات الممدوحين ، محاطة بهالات من العظمة الكاذبة القائمة على المبالغة والتهويل (٣) .

وقد برع شعراء البلاط فى فن القصيدة ، وكان الأنورى شاعر السلطان سنجر من أبرع شعراء هذا الفن (٤) .

كما راج فن القصص المنظومة بالفارسية فى العصر السلجوقى ، وبلغ درجة عظيمة من الإتقان والجودة ، وكان من أبرع شعراء هذا الفن نظامى الكنجوى ، فكان يحسن اختيار موضوع القصة ، ويجيد تصوير مناظرها

---

(١) نظامى الكنجوى المؤلف ، ص ٨٣ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٦١ — ٦٢ .
(٣) أرجع إلى أمين رازى : هفت إقليم ، ص ٥١٠ ، ١٠١٧ ، ١٠٢١ .
(٤) ارجع إلى نظامى الكنجوى المؤلف ، ص ٦٢ — ٦٣ .

ويجعل هذه المناظر متنوعة مع الجدة والابتكار وخلق المشاكل ليكسب القصة عنصر الطرافة والتشويق ، كما كان يتخذ القصة ميدانا للدعوة إلى الإصلاح الخلقي وتطهير النفوس ، وترك الظلم ، والتطلع إلى المثل العليا [١].

وتطور فن الكتابة في العصر السلجوقي ، فأصبحت « المقامة » ضمن فنون النثر الفارسي ، ومن أشهر كتاب المقامات بالفارسية – في ذلك الوقت – القاضي حميد الدين عمر بن محمود البلخي المتوفى سنة ٥٥٩ هـ (١٠٦٧م) [٢].

والواقع أن فن الأدب في عصر السلاجقة قد امتاز بما امتازت به الفنون بعامة من ميل إلى التأنق والتفنن ، فكان الشاعر أو الناثر لا يكتفي بصب أفكاره في قوالب جميلة من الألفاظ ، بل يحاول أن يرسم على هذه القوالب من النقوش والزخارف ما يجعل منظرها رائعاً جميلا ، فامتلأ الأدب بالمحسنات اللفظية والتشبيهات والاستعارات والكنايات وما شابهها ، وأصبح القول فنا كغيره من الفنون .

وراقت هذه الأشياء في أعين الناس والحكام ، واستحسنتها أذواقهم ، فأكثر الشعراء والكتاب منها في آثارهم [٣] .

وهكذا كان العصر السلجوقي عصر رواج وازدهار للفنون بمختلف ألوانها .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٧٨ — ٢٨١ .

(٢) بهار سبك شناسي ، ج ٢ ، ص ٣٢٨ — ٣٤٤ .

(٣) لا أجد ضرورة لذكر أمثلة شعرية ونثرية بالفارسية في هذا المجال لأن الغرض هنا التعريف بفن الأدب في العصر السلجوقي ، ومعرفة الاتجاهات الأدبية بصفة عامة كوسيلة لفهم طابع هذا العصر من الناحية الفنية ، كما أن مجال الكتاب لا يسمح بذكر النصوص ، ويستطيع من يريد الاستزادة في هذا الموضوع أن يرجع إلى كتاب نظامي الكنجوي المؤلف ، فإنه يلقي ضوءا على جوانب الموضوع .

خاتمة

حاولت فى هذا الكتاب عرض صورة لدولة السلاجقة ، تظهر هذه الدولة على حقيقتها ، وتبين أهم ملامح الحياة فى العصر السلجوقى من النواحى السياسية والدينية والاجتماعية والثقافية والفنية ، أى تعرض مظاهر الحضارة فى عصر السلاجقة ، وتعرف بمختلف ألوان النشاط البشرى فيه ، وتكشف الامتزاج الحضارى الذى تم بين العرب والفرس ، برغم أن الدولة الحاكمة كانت تركية الأصل ، وافدة على بلاد الفرس والعرب .

وأرجو أن يستطيع الدارس — بعد قراءة هذا الكتاب — أخذ فكرة صحيحة عن الدور الذى لعبه السلاجقة على مسرح التاريخ الإسلامى والعالمى والأثر الذى تركوه فى الحضارة الإسلامية والإنسانية .

حقيقة إن الكتاب عرض صورة الدولة السلجوقية الرئيسية منذ أسسها طغرل الأول فى عام ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) ثم اعترف بها الخليفة العباسى فى عام (٤٣٢ هـ (١٠٤٠ م) إلى أن سقطت فيها إيران والعراق بعد مصرع طغرل الثالث فى عام ٥٩٠ هـ (١١٩٣ م) ولم يعرض صورا لفروع السلاجقة فى كرمان وآسية الصغرى وبلاد الشام ، ولكن الطابع الحضارى كان واحداً فى جميع البلاد الإسلامية التى وجد فيها سلاجقة ، ولذلك اكتفيت بعرض صورة الدولة الرئيسية فى هذا الكتاب ، ولم أجد داعياً لعرض صور لفروعها فى نفس الكتاب ، مفضلا عرض صورة لكل فرع من فروع السلاجقة فى كتاب مستقل ، اعتقاداً منى بأن هذا أفضل للدارس ، وأوضح للصورة ،

بعد أن تكون الملامح البارزة لصور الحضارة فى العصر السلجوق بعامة قد وضحت أمام الدارس فى هذا الكتاب .

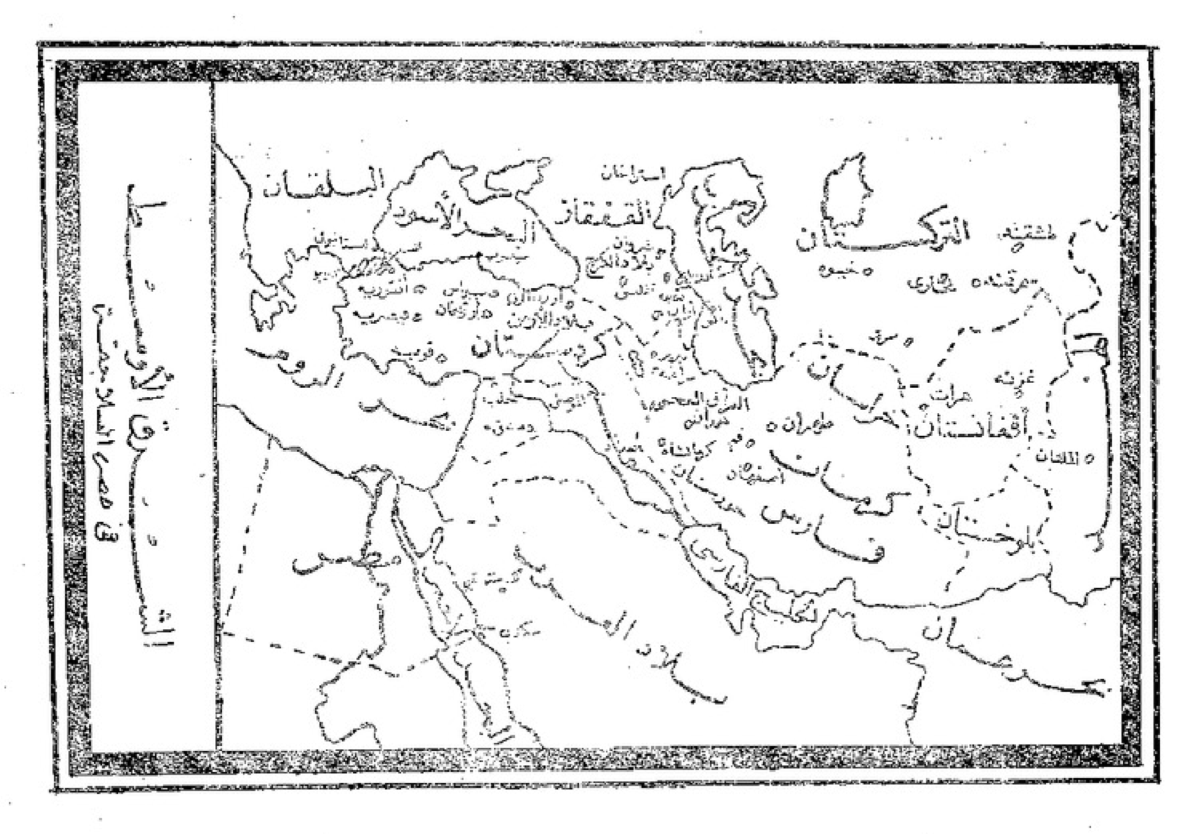
وأستطيع أن أقرر بعد هذه الدراسة لدولة السلاجقة الرئيسية أن هذه الدولة أهم الدول الإسلامية التى طفت على سطح الخلافة العباسية ، فقد حكم السلاجقة مدة زمنية طويلة ، امتدت أجيالا عديدة ، وشمل حكمهم بلاداً شاسعة ، مترامية الأطراف — كا ظهر من هذا الكتاب — مما مكنهم من إحداث أثر واضح فى المنطقة المعروفة باسم الشرق الأوسط ، لا يزال هذا الأثر باقياً إلى يومنا هذا،وقد يظل باقياً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فقد فتح السلاجقة منطقة آسية الصغرى التى كانت معروفة باسم بلاد الروم ، ونشروا الإسلام فيها ، ونقلوا الحضارة الإسلامية إليها ، لأول مرة فى التاريخ ، فأصبحت هذه البلاد إسلامية منذ ذلك الوقت ، ولا تزال بنفس الصورة إلى الآن .

وقد اشتبك السلاجقة فى حرب مع الدول الرومانية ، كانت فاتحة لحروب عديدة بين الشرق والغرب، عرفت باسم الحروب الصليبية ، استمرت بعد زوال حكم السلاجقة ، واشترك فيها ضباط السلاجقة فى الشام ، وفى مصر ، وفى مقدمتهم صلاح الدين الأيوبى ، مما جعل تاريخ السلاجقة يتصل بالشرق الإسلامى وبالغرب المسيحى ، ويذكر فى كتب الشرق والغرب المؤلفة بلغات مختلفة .

ولعل هذا كله كاف لإثبات أهمية دولة السلاجقة ، وقيمة الدور

الذى لعبوه فى التاريخ الإسلامى بخاصة وفى التاريخ العالمى بعامة ، مما يؤكد أهميـة الأثر الذى تركوه فى الحضارة الإسلامية ، وفى الحضارة الإنسانية ، ويجعل دراستهم واجبة ، وبيـــان حقيقة أمورهم أمرا يحرص عليه الدارسون .

وما توفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ؟



الشرق الأوسط
في عصر السلاجقة

ثبت بأسماء المراجع[1]

(ا) المراجع العربية

ابن الأثير : على بن أحمد أبى الكرم

١ — الكامل فى التاريخ ، ج ١٠ ، ١١ ، ١٢ طبع نورنبرج ١٨٥١ م أوج ٨ ، ٩ طبع القاهرة .

البندارى : الفتح بن على بن محمد البندارى الإصفهانى

٢ — مختصر تواريخ آل سلجوق نشر هوتسما ، طبع ليدن ١٨٨٩ م .

البيرونى : أبو الريحان محمد بن أحمد

٣ — الآثار الباقية عن القرون الخالية ، طبع ليبزيج سنة ١٨٧٨ ، ١٨٧٩ م .

الحافظ الذهبى : الحافظ شمس الدين أبو عبد الله الذهبى .

٤ — تاريخ الإسلام الذهبى ، طبع حيدر آباد الدكن ، ١٣٣٧ ه

حتى وجرجى وجبور : فيليب حتى وادورد جرجى وجبرائيل جبور .

٥ — تاريخ العرب . ج ٢ طبع بيروت ، ١٩٥٠ ، و ج ٣ طبع بيروت ١٩٥١ م

حسن إبراهيم حسن

٦ — تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، ج ٣ الطبعة الثالثة ، القاهرة ، ١٩٥٥ م .

---

(١) اذكر هنا اهم المراجع ، وقد وردت هى وغيرها فى ثنايا الكتاب وهى جميعاً منشورة يستطيع الدارس الرجوع إليها بسهولة .

الحسينى : صدر الدين أبو الحسن على السيد الإمام الشهيد أبو الفوارس ناصر بن على الحسينى .

٧ — أخبار الدولة السلجوقية ، نشر محمد إقبال ، طبع لاهور ، ١٩٣٣ .

ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد .

٨ — مقدمة ابن خلدون ، طبع بيروت ، ١٨٨٦ م .

٩ — العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ٧ أجزاء ، طبع القاهرة ١٢٨٤ ه .

ابن خلكان شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبى بكر الشامى .

١٠ — وفيات الأعيان ، طبع بولاق ، ١٢٨٣ ه .

الشهرستانى : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم .

١١ — الملل والنحل ، ٥ أجزاء ، طبع القاهرة ، ١٣١٧ ه .

عبد النعيم محمد حسنين

١٢ — نظام الكنجوى ، شاعر الفضيلة الإيرانى ، طبع القاهرة ١٩٥٤ م .

ابن العبرى : غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون الطبيب المعروف بابن العبرى .

١٣ — تاريخ مختصر الدول ، طبع بيروت ، ١٨٩٠ م .

ابن العماد : أبو الفلاح بن العماد الحنبلى

١٤ — شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ج ٤ ، ٥ ، طبع مصر ١٣٣٠ه .

الغزالى : الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد .

١٥ — إحياء علوم الدين ، طبع القاهرة ، ١٣٣٤ ه .

١٦ — تهافت الفلاسفة ، طبع بمباى ، ١٣٠٤ هـ .

أبو الفداء : الملك المؤيد صاحب حماة .

١٧ — تاريخه المسمى المختصر فى أخبار البشر ، طبع إستانبول ، ١٢٨٦ هـ .

القزوينى : زكريا محمد بن محمود القزوينى

١٨ — آثار البلاد وأخبار العباد، نشر وستنفلد ، طبع جوتنجن ١٩٤٨ م .

القفطى : الوزير جمال الدين أبو الحسن على بن القاضى الأشرف يوسف القفطى .

١٩ — إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، طبع مصر ، ١٣٢٦ هـ .

ابن القلانسى : أبو يعلى حمزة .

٢٠ — ذيل تاريخ دمشق ، طبع بيروت ، ١٩٠٨ م .

ابن الوردى : زين الدين عمر بن الوردى .

٢١ — تاريخه ، ج ٢ ، طبع مصر .

. . .

(ب) المراجع الفارسية

أفضل الدين الكرمانى : أبو حامد أحمد بن حامد الكرمانى .

٢٢ — عقد العلا للموقف الأعلى ، نشر على محمد نائينى ، طبع طهران ، ١٣١١ هجرية شمسية[1] .

(١) التقويم الهجرى الشمسى هو التقويم المستعمل فى إيران ، وتبدأ السنة الهجرية الشمسية فى ٢١ مارس غالبا وعدد أيامها ٣٦٥ يوم إذا كانت بسيطة و٣٦٦ إذا كانت كبيسة ؛ ولذلك فإن سنة ١٣٧٨ هـ تقابل ١٣٣٧ هجرية شمسية تقريبا ، وقد رمزنا للتقويم الهجرى الشمسى بـ « هـ ش » فيما بعد .

٢٣ — تاريخ أفضل يا بدايع الزمان فى وقايع كرمان ، جمع ونشر مهدى بيانى طبع طهران ، ١٣٢٦ هـ . ش

أمير خواند البلخى : محمد بن خاوند شاه بن محمود

٢٤ — روضة الصفا ، الجزء الرابع ، طبع طهران ، ١٢٧٠ هـ .

أمين رازى :

٢٥ — هفت إقليم ، طبع كلكته ، ١٩٣٩ م .

بهار : محمد تقى بهار ملك الشعراء :

٢٦ — سبك شناسى ، ج ٢ ، طهران ، ١٣٢١ . هـ ش

ابن البيبى : يحيى بن محمد المعروف بابن البيبى :

٢٧ — مختصر سلجوقنامه ، نشر هوتسما ، طبع ليدن ، ١٩٠٢ م .

البيهق : أبو الفضل محمد بن حسين الكاتب البيهقى .

٢٨ — تاريخ مسعودى ، المعروف بتاريخ البيهق ، نشر سعيد نفيسى ج ١ طبع طهران ١٣١٩ هـ ش ، ج ٢ طبع طهران ١٣١٦ هـ . ش .

وقد ترجم إلى اللغة العربية ، ترجمه الأستاذان يحيى الخشاب وصادق نشأت وطبع فى القاهرة .

حمد الله المستوفى قزوينى : حمد الله بن أبى بكر أحمد بن نصر المستوفى القزوينى .

٢٩ — تاريخ گزيده ، ج ١ ، نشر براون ، طبع بمباى ١٢٧٣ هـ ١٩١٠ م .

خواند أمير : غياث الدين بن همام الدين .

٣٠ — حبيب السير فى أخبار أفراد البشر ، طبع بمباى ١٢٧٣ هـ ١٨٥٨ م

الراوندى : محمد بن على بن سليمان الراوندى .

٣١ — راحة الصدور وآية السرور ، نشر وتصحيح محمد إقبال ، طبع ليدن ، ١٩٢١ م .

وقد ترجم الى العربيــــة ، ترجمه الأساتذة ابراهيم أمين الشواربى وعبد النعيم حسنين وفؤاد الصياد : طبع القاهرة ١٣٧٩هـ — ١٩٦٠م

عوفى : محمد عوفى :

٣٢ — لباب الألباب ، ج ٢ ، نشر براون ، طبع ليدن ، ١٣٢١هـ — ١٩٠٣م .

قاسم غنى :

٣٣ — تاريخ تصوف در إسلام ، طبع طهران ، ١٣٦٢هـ — ١٣٢٢ هـ . ش

كريستى ولسن :

٣٤ — تاريخ صنايع ايران ، ترجمة عبد الله فريار الفارسية ، طبع طهران ١٩٣٨ م — ١٣١٧ هـ . ش

گرديزى : أبو سعيد عبد الحى بن الضحاك بن محمود الگرديزى .

٣٥ — زين الأخبار طبع براين .

٣٦ — مجمل القصص والتواريخ (مجهول المؤلف ويبدو أنه مؤلف فى القرن السادس الهجرى) نشر بهار طبع طهران ١٣١٨ هـ . ش

محمد بن ابراهيم :

٣٧ — تاريخ سلجوقيان كرمان ؛ نشر هوتسما طبع ليدن ١٨٨٦ م .

(ح) المراجع الإنجليزية

Browne.Edward G.

A Literary History of Persia (From the Earliest Times until Firdawsi) London, 1909. — ٣٨

Dimand : M. S.

A Hand book of Mohammadan Art, New york, 1947. — ٣٩

Lane - Poole :

Mohammadan Dynasties, London, 1894' Paris, 1925. — ٤٠

Sykes : Sirpercy.

A History of Persia, Vol. II' London, 1930. — ٤١

فهرس الكتاب

الموضوع الصفحة

الفصل الثالث

سيطرة السلاجقة على إيران والعراق

الفصل الرابع

السلاجقة فى أوج قوتهم

الفصل الخامس

تنازع السلاجقة وتمزق دولتهم

الفصل السادس

انقسام دولة السلاجقة

الفصل السابع

انهيار الدولة سلاجقة المشرق

الفصل الثامن

ضعف سلاجقة العراق

تصحيح الأخطاء

وقعت أخطاء مطبعية لا يخفى أكثرها على فطنة القارىء الدارس نذكر أهمها فيما يلي :

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١١	١	دولة	دعوة
٢٠	١٩	لو يحاولوا	لم يحاولوا
٢١	١٣	يجملون	يحلون

المطبعة الفنية الحديثة
٢٠ شارع الأصبغ بالزيتون - ت ٨٦٤٨٧١